اعتقني من جنّتك

obeikan.com

obeikan.com

اعتقني من جنّتك

آسيا رحاحلية

دار الهدى
عين مليلة - الجزائر

obeikan.com

obeikan.com

....

الى القابضات على جمار الحروف المرابطات

على ضفاف الأحلام المشدودات بتاء التأنيث الساكنة

الى أسلاك شائكة

إليكنّ أهدي هذه القصص

و إليكم أيضا .

obeikan.com

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمات دافقة تندفع بليونة الماء، وسحر الخرير، هادئة.. صاخبة، في بوح غير محسوب، وشجن لامتناه، وهو يطلق آهة متصلة.. غناءً.. عويلا.. صراخا أخرس، وتداع منفلت من أسر الواقع، وجمود المعقول.. نحو الـ(طوبائية)، ينساب رقيقاً بين صمت الطبيعة وجلال الخلق وجماله. هروب من قسوة الواقع وتصلبات المعقول نحو الحلمية، فما الأدب إلا إعادة مستحيلة لخيارات الواقع المأزوم، وترميماً لبعض انكساراته بمثالية الخيال.

من أين يبدأ سردها، يأتي معه بالجمال الآسر.. بإيحاءاته.. موسيقاه.. فيسحب القلب إلى الانتشاء الطروب، ويشيع أنىّ سار أو وقف ظلالاً وارفة في لظى صيف، ودفء موقد في صقيع شتاء. عبر انثيال موح، وتداع حر.

وهي كذلك في كل شعرها وقصصها.. تتحدث بلغة الجمال الذي لا تطيق أن تمسك به الحروف، وتبويبات اللغة.. جمال روح تفهمه الروح دونما أسباب ومسببات.. ومنطق ولا منطق.

إنها موهبة واعدة تشي بالكثير، وصوت سردي آسر يعد بالمبهر من جمال الأدب وأدب الجمال.

إنه صوت القاصة المبدعة آسيا رحاحلية صوت مغاير في السردية العربية... نغمة موسيقية تنزف وجعها المنفرد في سمفونية الأحزان.. إرادة فكر أنثوي متمرد على السائد والمألوف في الأصوات،

خصوصاً النسوية منها.. متسلح بسحر الرقة، وجاذبية الجمال، لاقتحام حصون التابوهات وتحطيمها. همس عفوي نابض ببراءة طفلة كبيرة.. بيد إنه ناطق بلسان الشيوخ الحكماء.. نفس تتغلب عليه الشعرية ليس فقط في اللغة أو الرؤى والأفكار أو في التحسس والاستلهام الجمالي.. فإن الشعر ليس فيما ينظم أو ينثر فقط، بل فيما يثير الإحساس الشاعري ويكتب به في التوغل الحميم في دواخل النفس الإنسانية.

أسلوب كتابي بنكهة جديدة.. شراب أدبي لذيذ.. عذب مذاقه، يورث في النفس بهجة الكشف الأول عن المخبوء، ودهشة الإزاحة عن المبتكر... شفرات جميلة تتلقى بلذة آسرة. إنها روح القاصة المبدعة آسيا رحاحلية مجسدة في كلمات. صوت يتبع شعرية السرد وسردية الشعر.. وهو يتناول بجرأة حد الجنون الكثير من المسكوت عنه، خاصة في تكسير أطر الحواجز، والتابوهات المحيطة بالمرأة الشرقية.

إن القص النسوي المقابل أو كتابة القاصة بضمير الرجل، منهج ثابت لدى القاصة المبدعة آسيا رحاحلية، لعله جزء من محاولة التملص مما يحيطها من تابوهات أوجدها العقل الذكوري، وسلّم بها العقل الأنثوي.. وخلاصاً مخاتلاً من تبعات التراكم الكمي لمخزون الذاكرة الجمعية من محذورات ومحظورات، أي هروبية إيجابية إلى أمام، من تبعيات المطالبة الجهرية بالمساواة والحقوق و.. و..!، وهو بالتالي مداهنة مع عين

الذكورة المراقبة بحذر مشوب بالصلصة من أجل التأويل المغرض لكل كلمة تقولها - حسب رغبة النفوس وأهواءها- وتحسب على القاصة لأن الآخرين يعتقدون بأنها دائماً تتحدث عن نفسها.. وهو شعور ذكوري وربما أنثوي عام.. دونما تعمد أحياناً.

كما في قصة (اغتصاب) كأنموذج فقط لما أشرنا إليه، وهي قصة جميلة جداً في إيحاءاتها، وفي تناولها للصراع النفسي، وتبكيت الضمير وعذاباته.. تتوغل عميقاً في مرامها، قصة شباب يسقط فريسة في شراك الرذيلة، والأدهى مع خالته اللعوب.. إذ نلمح إن القاصة لديها قدرة متميزة في الغوص في أعماق النفس الإنسانية، وتفوّقا واضحا في عملية استخراج مخزونها بإحساس عالي قد لا يتهيأ للكثيرين من الكتاب.. نساءً ورجالا، خاصة في أمر المسكوت عنه.. وهذه القصة خير شاهد على الشجاعة الأدبية في الدخول لمثل هذه الثيمات بجرأة الواثق.. وسلاح المتمرس في فنون السرد، وصنعة التخليق الأدبي الموهوب.

كما تتميز بعض نصوص القاصة كقصة (عيشة) وغيرها، بلغة إيمائية تتوغل في الكشف عن دواخل أبطال مهمشين، نسيهم نور الشمس.. فقبعوا طويلا في ظل الحياة.. وآلت القاصة على نفسها إلاّ أن تتبنى قضاياهم، ومظلوميتهم الراتبة، ويستعيروا فمها ويراعها في صراخهم المكبوت.. كأنها لسان آلامهم الخرساء.

طالب عباس الظاهر

العراق

واجهة للحلم.. وأخرى للجحيم!

الهاتف اللعين لا يرنّ.

الأخبار التي تأتي كل لحظة بأيّ هراء تبخل بخبرٍ عنها يطفئ لهيب قلبي.

الجرائد لا تقول شيئا... طبعا تقول الكثير.. لكن لا شيء عنها... أبدا.

زمن جميل وأحلام فتيّة، صافية، مباحة... نوافذ مفتوحة على الدنيا، ولا سحبَ في السماء ونحن، ضاحكين مستبشرين نتوسّد ساعد البحر ونثرثر، والموج متواطئ معنا، يشاغبنا، يسافر بأحلامنا إلى الشاطئ الآخر البعيد ثم يعيدها لنا أجمل ممّا ابتدعناها.

- حسنا... أما أنا فسألتقي امرأة مختلفة، رقيقة ومرحة، سأجنّ بها ويملأ وجودها الكون من حولي، سأسكنها زاوية نائية من هذا القلب بحيث لا تراها عينٌ سوى عيني. حبيبتي ستؤثث نهاراتي بالدهشة، وليلا تنام على صدري فأرتّب خصلات شعرها، وأعدّد رموش عينيها، وأشرّع أنفاسي ستائرَ دفء تحميها من نسمات الهواء الشاردة.

- جميل..! لا تنس أن تعرّفنا بها حين تعثر عليها!

- مختلفة؟ يا صاحبي كل النساء سواء!

- من حقّك أن تحلم أيها الصحفيّ المجنون!

كما يحلم بحّار مغامر بحورية البحر... أو فارس مغوار بأميرة تصطفيه من بين ألف ألف فارس... حلمٌ متفرّد فيه من السّحر والخرافة والأسطورة، ويقع على خط رفيع بين الممكن والمحال.

- لابد أنها موجودة، في مكان ما، من أجلي أنا فقط. أليس كذلك؟

- لا أدري. لعلّها فقط في نقطة ما من رأسك المشحون بالأحداث والكوارث!

- الأمر قضية وقت، وأنا لست مستعجلا.

- نعم. سيسعدنا أن تكون العازب الوحيد في الشِلّة ونحن نحتفل بولادة أحفادنا!

لن يكون ذلك... لقد كبرت وأنا أرى أحلامي تتحقّق، كلها، بمنتهى اليسر. خلقت الأحلام لي، من أجلي، لكي تكون رهن رغباتي. محظوظ هذا الفتى! تقول أعين الناس من حولي، وتقول أمي أمام الجميع، بمناسبة ودون مناسبة "قد تنبّأت بمولده... هذا الولد أعطاه لي ربي في المنام"!

أمي الآن ترثي لحالي. تصلّي وتدعو ربي أن يعيدها لي سالمة.

الهاتف اللعين لا يرنّ.

الأخبار تأتي كل لحظة بأيّ هراء إلاّ بخبر عنها.

الجرائد لا تقول شيئا.

طبعا تقول الكثير... وفيها الكثير، ظلم، ودم، وسخف، وكذب ولكنّها لا تقول شيئا يعيدها لي ويعيدني للحياة.

- قل لي... ماذا عليك أن تفهم حين تعبس الدنيا في وجه قلبك؟ حين يتعسّر حلمك؟ بأنّ حلمك هو الأروع؟ بأنك لا تستحقّه؟ أم بأنّه عليك توقّع الخسارة مهما كان الكسب دائما حليفك؟

- هوّن عليك يا صديقي. تفاءل خيرا... هل تذكر الطبيب ج.ع. الذي اختطفوه من شهر؟ لقد أعادوه إلى أهله بعد عشرين يوما. أرادوه أن يجري عملية على قلب "أميرهم"... وبعد أن فعل أطلقوا سراحه.

أميرهم؟ وأميرتي أنا... ماذا عنها؟ ومن ذا يجري عملية لقلبي، فينتزع منه فتيل ولعي بها وقلقي عليها؟ يا إلهي! أكاد أجن، بخار الغضب يرتفع في صدري وغابات الخوف تنمو في ضلوعي كلّما تصوّرت ملاكي الأبيض محجوزا في قعر الجحيم، بين مخالب الوحوش.

صحيح... لم أؤمن أبدا بوجود الملائكة على سطح الأرض، على أي شكل كان، ولكّنك آمنتَ يا قلبي بكل ما كفرتَ به لحظة وقعت عيناك عليها. لو كان للرقّة والحنان أن يتجسّدا في أنثى لكانت هي.. والغريب أن أوّل ما شدّني فيها هو صوتها. صوت ساحر كأنّه هسيس الماء، وفيه بحّة تخطف العقل قبل السمع... غمر كياني بالدفء، تخلّل سمعي فأيقظ كل حواسي وفتح بوابة للحب والفرح. نعم الصوت... آخر ما كان يهزّني في الأنثى! لم يكن يثير انتباهي ويحفّز شيطاني على القفز في فضاء المغامرة سوى القوام في رشاقته وتعرّج تضاريسه، والنهد المتعجرف في شموخه وعنفوانه.

كنت أعرف أنّ بعض الحب يولد على حين شهقة، كما الصاعقة، لكن أن يصرعني وأنا نصف ميّت، ممدّدٌ فوق سرير المرض في مشفى كبير... فذاك آخر ما كنت أتوقّعه. غبيّ! فاتكَ أنّ الحب لا يعنيه مكان أو زمان ولا يعترف بجغرافيا أو تاريخ.. لا يقرع الأبواب على استحياء أو ينتظر الإذن بالدخول، إنّما يندفع كالإعصار محطّما الأبواب والنوافذ.

لطالما تساءلت: كيف سألتقي حبيبتي؟. كيف ستكون البداية؟

لحلم مميّز لابد من بداية مميّزة.

لم أتصوّر أن يكون اللقاء في حديقة عمومية تضجّ بالأنفاس، أو حفل زفاف صاخب لصديق عزيز، أو محطة قطار يأكلها غبار السأم... لا.. كنت أحلم بلقاء شاعري على شاطئ البحر عند المساء، والنوارس البيض تشاغب الموج، تراود الأسماك، وتلهو بطيش فوق سطح الماء، أو في الصباح قرب محل بائع الورد... ستمر صدفةً، وسأسألها أن تختار لي باقة أهديها لوالدتي في عيد ميلادها، وسيكون ذلك ذريعة لبدء الحديث و... الحب!

لكن الحب واعدني هناك.. تلك البناية المقابلة لهذا المقهى حيث أجلس الآن.. غرفة في نهاية الرواق... في الطابق الثالث، جدرانها بيضاء بلون الفراغ، تفوح منها رائحة الانتظار، يطلّ من نوافذها وجه الأنين ويذرع الموت أرضيتها ليلتقط ما تساقط من أوراق.

لمَ المشفى؟ لا أدري... ربما لأن الحب وباءٌ يصعب الشفاء منه، أو لأنه مثل المشفى، ندخله بلا إرادة ونخرج منه بلا إرادة أيضا لكن مرقّعين موسومين أو... قد لا نخرج سوى جثث هامدة خاصمها النبض!

بادرتها قائلا وقد شعرت بنظرتها تستفّ كل الألم، في كل جسدي:

- صوتك جميل. حرام أنّه لا يصل أسماع الدنيا. كان ينبغي أن تمتهني الغناء لتشفى جروح الروح.

- لكني اخترت أن أشفي جروح الجسد. أيهما أولى بالمداواة في رأيك؟

- لا أدري. أنا الآن جسدٌ مشروخ وروحٌ مهلهلة وكلاهما بحاجة إلى سحر أناملك.

وأحاطني سحرها، كبّلتني أنوثتها وجمالها الهادئ وشخصيتها الرزينة وثقافتها، وعشقها للفن والأدب. أحببتها وأحببت المشفى، وتمنّيت أن لا أخرج منه أبدا.. وكنت كلما تقدمت في الشفاء قليلا تقدّمتُ في عشقها أكثر، كأنما حبّها يزاحم علّتي فيطردها ليحتلّ مساحات دمي وزوايا روحي.

- أخبريني.. ماذا وضعتِ في الحقنة؟

- لمَ تسأل؟

تقول في حيرة.

- لأني أحسّ كأنّي في الجنة أطير مع الملائكة!

تبتسم:

- ألا تكفّ عن الهذيان؟

- لا.

وأضيف ويدي المحمومة تتحسّس يدها الناعمة كالقطن...

-ليس قبل أن توافقي على الزواج بي.

لم أفكّر حين نطقت العبارة. في سكرة الحب يتخدّر الفكر. لم أرد أن أعطي نفسي فرصةً للتفكير. ليس التفكير ضروريا دائما، بالعكس كثيرا ما يفسد جمال اللحظة.... ماذا ستقول أمي؟ وعائلتي؟ والناس؟ بعد كل هذا الانتظار يتزوّج امرأة مطلّقة ولها ابن؟ كل ذلك لا يهمّ، سوف أحارب الدنيا من أجلها وستوافق أمي، وتخطبها لي، ابنها سيكون ابني، وسوف أحميها، من العالم والبشر، وسنحب بعض في المرض والصحّة والفقر والغنى، وفي الحياة والموت وحتى بعد الموت.

الهاتف اللّعين لا يرنّ.

الأخبار تأتي كل لحظة، بأيّ هراء إلا بخبرٍ عنها.

الجرائد تقول الكثير ولا تقول شيئا لا خبر.

لا رسالة بطلب فدية ولا حتى إشاعة تسقي في أعماقي بوار الأمل.. وأنا أجلس هنا، كل يوم، مثل بوهيمي غريب الديار على وشك أن يفقد عقله، يفتّتني الانتظار، أجتر الذكرى وأغالب الشوق، فيغلبني.

الشوق أشد وطأة من المرض وأقسى من الموت.

أخرج من جيب سترتي ورقة مطوية لجريدة عمرها بالتحديد شهر وثلاثة أيام وبضع ساعات، أفتحها وأقرأها للمرّة الألف".

في حاجز مزيف بنواحي ..... اختطفت مجموعة إرهابية ممرضة وطبيبا مختصا في أمراض القلب، كانا على متن سيارة إسعاف متّجهين نحو مدينة .....، وقد أغلقت العناصر الإرهابية الطريق بواسطة المتاريس الخشبية والأحجار وأجبرت السائق على التوقف والنزول، وتحت التهديد بالقتل صعد الإرهابيون على متن سيارة الإسعاف، وواصلوا طريقهم قبل أن يهجروها على بعد مئات الأمتار، ويقتادوا الضحيّتين معهم نحو وجهة مجهولة".

أطوي الورقة، أعيدها إلى جيبي، أتحسّس هاتفي، تندّ عن صدري تنهيدة حرّى، أرسل نحو بوابة المشفى نظرة فارغة متّشحة بالحداد، وأترك المقهى إلى حيث لا أدري، وليس في حقائب عمري سوى أمنية وحيدة.

الهاتف اللعين لا يرنّ.

الأخبار تأتي كل لحظة بأيّ هراء إلا بخبرٍ عنها.

الجرائد تقول كل شيء.

الجرائد لا تقول شيئا.

ودارت الأيام...

لأنّ لا شيء يحدث صدفةً، أتساءل كيف بدا للأيام أن ترتّب لقاءنا بعد أن احدودب الحلم واشتعل القلب حزنا، وشاخت في مروج العمر شجيرات الأماني؟

كيف... بعد أن غرّبتنا الدروب وامتد ما بيننا زمنٌ تافه، بليدٌ، معبأٌ بالدمع والوجع وتراتيل النسيان؟

لم يكن المساء عاديا في الشارع النائي من مدينتي الصاخبة. شيء يشبه الحنين يراقص ذرّات الهواء والمكان يلفه هدوء غريب، كالذي ينذر بحدوث أمر رهيب. هادئة، مثل المساء. خطواتي ثابتة فوق الرصيف. صحيح، في داخلي جرح عتيق، لكن يبدو أنّه اندمل. تماما. استكان بعد أن أمدّني كفايتي من الألم. ما عدت أحسّه، أدرك فقط بأنّه هنا، مثل وشم قديم باهت. مجرد خطوط ضبابية فوق صفحة العمر. خربشة لم تعد تعني الكثير.

رفيقتي تمسك بذراعي في طريق عودتنا من العمل.. نثرثر ونتبادل التعليقات كلما قاطعتنا عيون تغازل. تكاد تخرج من محاجرها. أحدهم كان يطوي الطريق بسيارته جيئة وذهابا محاولا جلب انتباهنا. ما أن يتجاوزنا حتى يضاعف

السرعة، وعند نهاية الشارع يستدير ويعود أدراجه باتّجاهنا أمام استغراب بعض المارة.

قالت رفيقتي ضاحكة:

- أرأيت كم هو وسيم؟ إنّه يغازلكِ..

قلت:

- لم أنتبه. لعلّكِ بُغيته.

- لا. أنه يلاحقك أنتِ منذ خروجنا من الشركة.

قلت في غير اكتراث:

- لا أدري متى سيكفّ الرجال عن ملاحقة النساء!

- نعم. كأنّما آدم يود لو تعود حواء ضلعا في قفصه الصدري!

- تعدّدت الأقفاص والسجّان واحد يا عزيزتي!

وضحكنا، لكن ضحكتي تجمّدت فوق شفتي حين مرّت السيارة بقربي تماما وأبصرت من نافذتها وجها ألفته روحي ونقش في جدارات شراييني وحفظ قلبي، ذات زمن، أدق تعابيره.

كان يبتسم لي في حنان.

توقّفت فجأة عن السير وقد ذهلت عن أمر نفسي وأخذت مني الدهشة كل مأخذ، ودون وعي تركت رفيقتي ومشيت نحو السيارة. مشيت؟ لا لم أمش بل جريت، وقد بدت الأمتار القليلة التي تفصلني عنه أميالا لا نهاية لها.

نزل من السيارة. تبادلنا التحيّة، تصافحنا بحرارة وكل جوارحنا تبتسم، والدنيا من حولنا مهرجان فرح.

تحدّثنا كأنّ شيئا لم يكن، كأنّنا افترقنا منذ يومين فقط على ضوء ابتسامة وميعاد حب. كأنّنا لم نختلف، نتخاصم، نجرّح بعضنا ونقسو على بعضنا ونتّهم بعضنا. كأنّنا لم نخنق بأيدينا حبا جميلا ونختصر فصول مشروع العمر في فصل واحد ابتدعناه معا... هو الخيبة.

يا للحظة المثيرة! قصيرة كانت، لكن كافية لكي أغرق في يمّ من الأحاسيس. ثانية من الزمن اختصرت سبعة عشر سنة من البعد والجفاء والصمت... ثانية فقط مررتُ فيها بكل تدرّجات اللقاء المباغت... دهشة ثم ارتباك ثم رجّة قلب ثم فرحة ثم عتاب بطعم الدمع رأيته يطل من جفوني، ثم... شوق فاض من حنايا روحي، وعصافيرٌ ملوّنة، بديعة الشكل، أفلتت من ثقوب ذاكرتي وملأت من حولي المكان بشدو الحب... الذي كان.

قال ووجهه طافح بالحنين:

- كنت مارا ورأيتك فأصررت أن تريني، لذلك قمت بتلك المناورة بالسيارة كأنّي مراهق مجنون.

- لا أصدّق أن نلتقي هكذا ببساطة بعد كل تلك السنين. أخبرني كيف أنتَ؟

- بخير وأنتِ؟ سمعت بخبر طلاقك.

- نعم. لم نتّفق وانفصلنا منذ مدّة... وأنتَ؟

- كان يجب أن تفهمي أنك لن تكوني سعيدة إلا معي.

- في كلامك رائحة شماتة. ألم تشف بعد من غرورك؟

تهمي لحظة صمت ونحن عند سدرة الماضي البعيد ولا أحد منا يصدّق بأنّه يحدّث الآخر.

- أنتَ لم تحبّني حقا.

قلتها كمن يصدر حكما نهائيا يتمنى فيه وقف التنفيذ:

- بل أحببتكِ. بجنون. خاصمتُ الدنيا من أجلك.

عيناه مهرتان مطهّمتان بالوجد تجوسان وجهي.

- ما تزالين جميلة.

شفتاه ترتعشان، تنفرجان ثم تنغلقان، تختزلان كلاما لا يسعه الزمن، كلاما ظلّ طويلا مرابطا عند حدود الغياب.

يداه طائران محمومان، يشتبكان ثم يبتعدان في محاولة لتلمّس سبيل إلى يدي.

نظرته شعاعُ صبابة يتغلغل في تفاصيل جسدي.

- لا يزال نهدك حمامة نافرة... لم تكن لتهدأ سوى في كفّي. هل تذكرين؟

الأرض. وكما السمكة، مرقتُ من فجوة في الحاضر ووقفت هناك عند ربوة أول حب في حياتي. أول رجل استفاق على همس عيونه نبض قلبي، ورقصت على عزف أنامله زهور أنوثتي. رجلٌ تهجّيت معه أبجدية الحب في روعته وسحره وجنونه وقسوته، أو ربما... قسوتنا عليه!

وعبثا كنت أستجدي أجوبة لتساؤلاتي... كيف ابتعدنا؟ ما الذي أجهض حبّنا؟

كان مقدّرا أن نفترق لأنّ... لأنّ ماذا؟

لا عبارة مقنعة تكمل السطر.

مؤسف في كل الأحوال أن ينتهي الحب، ومؤسف أكثر أنّ يموت بغباء وحمق، دون سبب واضح، سوى طعنات متبادلة من عنْدٍ وشكٍ وغيرة.

قبعت في البيت ليومين. لم أجد رغبة في الخروج. لم أذهب إلى العمل. سكرت من نشوة اللقاء، مرضت من التفكير فيه، كلامه ولهفته، "حبيبتي" التي اشتاق قلبي سماعها، وتلك النظرة التي عشقتها، كانت دعوة صريحة لبدء القصة من جديد لكن، أي بناء سوف يرتفع فوق الأنقاض؟ وهل يعود الذي كان كما كان؟ هل سيكون حبا أم نسخة لا تطابق الأصل؟ حبا أم مسخا، ومحض صورة مموّهة، متصدّعة للوحة كانت ألوانها زاهية ذات زمن؟

"بإمكاننا تعويض الذي فات"! أيمكن ذلك؟.. كيف أيها الحبيب الذي لم يعد حبيبي؟ كيف سنشفي ثُكل قلبينا ونمحو ما تراشقا به من جراح، كيف سنلملم أحلامنا التي جرفتها السنين؟ كيف سنعيد بناء أعشاش المنى وقد اقتلعنا بأيدينا شجرة الحب من جذورها؟

تذكرت "نحن لا ننسى أبدا حبّنا الأول لأننا اضطررنا أن نتخلّى عنه". فعلا. لكن ما تغمّده الماضي لا يمكن بعثه من جديد... مهما حاولنا.

سوف نكون كمن ينفخ في الرماد.

هادئة. في طريقي إلى الشركة. خطواتي ثابتة فوق رصيف الشارع النائي من مدينتي الصاخبة. توقّفت هنيهة عند مكان اللقاء. شردت للحظة ثم خلعت عن قلبي صورة اللقاء الجميل.

كنت أسمع في داخلي صوتا يهمس: لا جدوى، عد يا قلب إلى بياتك العاطفي.

أكملي دورتك أيتها الأيام!

لو العمر حافظة أوراق...

دخل الطلبة مسرعين. أخذ كلٌ مكانه.

رهبة الامتحان لم تمنعهم من بعض الوشوشة والضحك...

وزّعت أوراق الأسئلة ومعها ابتساماتي...

فكّرت فيك "ابتسمي دائما، حبيبتي، فكل ما حولك يصير أجملَ حين تبتسمين".

جلست أراقبهم. ساد الصمت. لم يعد يسمع سوى وقع الأقلام وخشخشة الأوراق كأنما هو عزف نشاز لفرقة مبتدئة.

وشردت فيك. ترى ماذا تفعل الآن... وهل أنا هناك معك كما أنت هنا معي؟

"البعيد عن العين، بعيدٌ عن القلب" هراء! لو كان هذا صحيحا لكان "كل قريب من العين قريبا من القلب"!

نظرت في الورقة أمامي.. خمسة أسئلة. ما أسهله امتحان!

رفعت رأسي وتأمّلت الوجوه...

ماذا لو تبادلنا الأدوار؟ كنتُ أجبت بمنتهى السهولة وبإسهاب.

obeikan.com

أخذتُ القلم وكتبتُ على الورقة أمامي سؤالا سادسا... "كيف نوقف هطول الشوق وانهمار الحنين؟"

تأمّلت الرؤوس المحنية من جديد... هذا هو امتحاني... من منكم يجيب؟

لا أنتم ولا أنا نستطيع. سؤالٌ صعب. أصعب من كل دروس المقرر... لا مجال فيه للتخمين... لا يفيد حفظٌ ولا تنفع مراجعة.

خرَقَ الصمت صوت يسأل.

- أستاذة. هل أخرج ورقة إضافية؟

أومأت برأسي أن نعم... آه لو أنّ العمرَ ورقة... أمحو فقراتها، نقاطها، فواصلها،أمحو ما خطته يد الزمن على هوامشها، أمحو كل علامات التعجب والاستفهام، ثم من أهداب عيني أصنع ريشة أرسم بها بطول الورقة وعرضها عينيك.

آهٍ... لو أنّ العمر حافظة أوراق أفرغ ما بداخلها من صقيع ثم أملأها بدفء وجودك.

آه لو يخرج لي الزمن من جعبته عمرا إضافيا أعيشه لك أنت.. لك وحدك.

ابتسمت... تذكّرت أيام الطفولة وحفلات نهاية السنة الدراسية... كنا نجلس مشدوهين نتفرّج على الساحر وهو يخرج من قبعته الكبيرة السوداء كرات صغيرة وبالونات ملونة وحلوى يوزعها علينا...

رأيت نفسي أمامه. ها هو ينظر إلي طويلا ثم يخرج لي قلبا في غلافه لا أثر فيه لجرح أو خدش أو طعنة... يمد يده ثانية داخل القبعة ويعطيني ورقة بيضاء... يبتسم ويقول" هذه ورقة إضافية لك أنت فقط... لا تهمليها، لن تحصلي على غيرها، لا ترسمي عليها سوى سنابل الفرح.

أمسك بالورقة بقوة كأنما أخشى أن يغيّر رأيه... أحاول رسم سنبلة فلا أذكر شكلها وأجدني أرسم ملامح وجهك.

صوت آخر يمزق ستائر خيالي.

- أستاذة من فضلك كم بقي من الوقت؟

- ما يكفي لتنظيم الإجابة ومراجعتها.

يا له من سؤال! صحيح... كم بقي من الوقت؟ ولكن لفعل ماذا تحديدا؟ ليحبك القلب بجنون أكثر أم لتتمزّق الروح أسفا على عمر فلت منها دون أن تكون أنت فيه؟ أم لتأتي النهاية ومعها الإحساس باللاجدوى من كل الذي كان..؟

رنين الجرس ينزلني من فوق السحاب.

انتهى الوقت.

جمعت أوراق الإجابات...

هممت بالخروج فرأيت طيفك يسبقني إلى الباب.

حمم الذاكرة

"آهٍ لو ألتقيه يوما هذا الذي اخترع الربطة... سألفّها حول عنقه وأشنقه بها، بيديّ هاتين"!

لم يحب ربطة العنق أبدا رغم حبّه للأناقة... يعتقد أنّ من ابتكرها شخصٌ مختل كان في حقيقة الأمر ينوي الانتحار.

"كأنْ لا تكفي هاته الأربطة حول حياتنا وحرّياتنا!".

يفكّر ساخطا. يعيد المحاولة. دون جدوى. مائلة إلى اليسار الآن. يستنجد بزوجته. بأصابعها الطويلة النحيلة التي تزينها خواتم ذهبية لامعة، تنهي الأمر بكل سهولة، وفي لمح البصر.

- شكرا لك...

"يا الله! كائن عجيب هي المرأة"!

لم يكن عبد الرحيم يبدي ذلك دائما ولكنه يعترف في قرارة نفسه بمهارات زوجته العديدة. وكثيرا ما حدّث نفسه وهو مستلق على الأريكة، ينفث دخان سيجارته ويراقب حركاتها وهي تدب في البيت، تروح وتجيء في أرجاء عالمها الوحيد، تبعث فيه من روحها، تنظّف هنا، وترتّب هناك،

ملمّة بكل كبيرة وصغيرة، حاملة همّ كل شيء.. "يا للمرأة! كم تدهشني قدرتها العجيبة على الاضطلاع باحتياجاتها هي كأنثى وباحتياجاتنا نحن الرجال أيضا!.

لا أدري ماذا كنا نفعل لولا وجودها في حياتنا".

يقف أمام المرآة يتأكد من أناقته، يحاول التغلب على شعور غامض من التوجس والقلق يزحف فوق صدره.

ربما لأن هذا اليوم من الأيام الهامة في حياة عائلته الصغيرة.

"لا أصدق أنّك كبرت بهذه السرعة يا ابني؟ مازلت أراك طفلا يمرح ويملأ البيت صخبا وحياةً".

مرّر راحة يده اليسرى على الربطة الحريرية البراقة. طاف على شفتيه شبح ابتسامة سرعان ما تبخرت عندما ارتطمت يده بكرشه البارزة.

تعكس له المرآة صورة أقرب إلى المثالية لولا هذه الكرش.

لقد تقبّل على مضض غزو البياض لمفرقيه ووسط رأسه محاولا إقناع نفسه بأن الشيب مرادف للوقار، ولكنه يجد حرجا كبيرا في تحمّل مظهر كرشه.

"أمران يفضحان عمر الرجل منا يا صاحبي، مهما حاولنا إخفاءهما الصلع والكرش البارزة".

كما يحلو لأصدقائه التندّر به.

كان عبد الرحيم دائما رجلا أنيقا، وسيما، جميل الملامح، متناسق الجسم، عريض الصدر، مفتول العضلات، كثيف شعر الحاجبين ولكن في غير بشاعة. أيام الجامعة كان الرّفاق يترجّوه ألا يظهر معهم حين يتعلق الأمر بغزو قلوب الفتيات، لأنّه يستحوذ على اهتمامهن ويخطف عقولهن بخفة دمه ولباقة حديثه وسحر ابتسامته.

تلك أيام ولّت ولن تعود.

والحق أنه اليوم، في نظر الجميع، رجل سعيد.

أليست السعادة منزل وولد ووظيفة وزوجة مطيعة؟

لكن لا أحد يدري مرارة تلك اللحظات حين ينتابه الإحساس بأنّ الحياة نسيته، ذات المساء، معلّقا بأهداب حبيبته الفاتنة، وأنه لا يعيش حقا وإنما يأكل ويشرب وينام ويراقب قافلة أيامه تمر متباطئة متخاذلة، خائرة. ينتابه الضجر من الاستقرار، تخنقه رتابة الزمن، ويحلم بأن تتعثّر خطاه بحدث ما، مهما يكن، ينتشله من مستنقع

الروتين والملل ويمحو قتامة الأمسيات التي يقضيها بين المقهى وشرفة البيت.

آهٍ... يا حبيبة العمر كم هي أيامي في غيابك تافهة وسخيفة وبلا إيقاع!.

يتصوّر الحياة مختلفة تماما... رحلةً مثيرة، ساحرة... نهارات مشرقة معشوشبة بالفرح، وليالٍ دافئة مطرّزة بالحب والنشوة... لو... أنها معه، لو لم يحرمه والده منها ويقف في طريق سعادته.

يطيل النظر في المرآة كأنما يدقّق في ماضيه البعيد... يحس باللوعة والأسى وتغرورق عيناه بالدمع.

يعتصر الهمّ قلبه.

"ريحانة"... حبّه الأول والأخير، أحلامه، فرحة القلب الوحيدة، أغنية الروح الخالدة.. النوتة التي لا تستقيم بدونها سيمفونية الوجود ولا يكتمل بسواها اللحن... الدرّة التي فاز بها واختارته وفضّلته على كل الخطّاب والمعجبين.

حب العمر الذي ضاع مع الريح يوم تحطّمت آماله عند قدمي والده.

ويطلّ عليه السؤال مرّة أخرى... ترى على أي شاطئ رست بها الأيام؟

وهل أمر بخاطرها أم أنني نسيًا منسيًا؟

لم يستطع نسيانها أبدا، ظل يتمنى لو يلتقيها مرّة، ولو صدفة، أن يلمحها ولو من بعيد.

كم هدّه الشوق وراوده الحنين لنظرة منها تزرع يباب روحه بالنور والخضرة ولكنه لم يرها، منذ تلك الأمسية... يوم كان جبانا، ضعيفا، خائر الإرادة حتى أنه لم يجد الشجاعة لإخبارها برفض والده فاكتفى برسالة وضعها في كفّها قبل أن يغادر كسير القلب ممزّق الروح، مؤكّدا لها أنها تستحق رجلا أفضل منه.

يكتم آهة حزينة وتغشى سحنته سحابة حزن.

كلمات والده تتردد في رأسه، بل يكاد يراه الآن، واقفا على عتبة البيت يلوّح بعصاه الخيزرانية الغليظة، عيناه جاحظتان ترسلان شررا ووجهه بؤرة غضب.

صوته يجلجل، يصل إلى مسامع الجيران والرذاذ يتطاير من شدقيه.

- مستحيل أن أوافق على زواجك منها... عائلتها لا تناسبنا. هل تريدني أن أصبح أضحوكة أصحابي ومعارفي؟

كل الوسائل فشلت أمام غلظة قلبه... لم ينفع تدخل أعمامه، ولا دموع والدته تتوسل إليه أن يرأف بابنه الوحيد ويوافق على من اختارها قلبه.

لا فائدة... والده لا يلين.

كيف يزوّج ابنه الوحيد ووريثه من فتاة عادية والدها رجل فقير لا يملك مالا ولا جاها؟

ويأتي القرار كحد المقصلة:

- لست ابني ولا أعرفك وغير راضٍ عنك إلى يوم القيامة لو تزوجتها!

- ما بك؟ هل هذه سحنة أب سيتعرّف اليوم على عروس ابنه؟

يفيق من شروده، يفتعل الابتسام:

- أبدا.. كنت... كنت أفكّر كيف كبرنا بسرعة وأصبحنا عجائز. ابننا سيتزوّج... تصوّري.

- أنت العجوز. أنا مازلت شابة!

وتطلق ضحكة عالية...

كان مساءً شتوياً باردا ينذرُ بكل أسباب التعاسة حين أخبرته والدته أن والده عثر له على الفتاة المناسبة. ابنة

أحد أصدقائه الأثرياء... من عائلة عريقة، مقبولة الشكل، وعلى قدر من التعليم.

لم يستطع سوى الإذعان والرضوخ لإرادة والده.

وكان الزواج الذي استمر لسنوات على نفس واحد ووتيرة واحدة، الفتاة هادئة مطيعة وربة بيت وفوق ذلك أنجبت له الولد.

دخل الابن يستعجلهم وقد جلب باقة ورد جميل وعلبة كعك.

فغر فاه دهشة...

- أمي... ما كل هذا التأنّق؟

- يا ابني الانطباع الأول مهم جدا.

- أخبرتكم أنها من عائلة متواضعة جدا... ثم هذه زيارة تعارف وليست خطوبة رسمية.

- ولو... هل تريدنا أن نبدو بمظهر بائس أمام من سنصاهرهم؟

استقلّوا السيارة وانطلقوا.

وكان عبد الرحيم يحدّق في ابنه وهو يقود كأنّه غير مصدّق أن الزمن مرّ بهذه السرعة.

- هل....

ويختنق السؤال في صدره. كان يريد أن يسأله "هل تحبّها؟"

- هل... هل أنت واثق من قرارك؟

- نعم، أبي... لكن سبق وأخبرتك ليست من عائلة كبيرة أو معروفة... والدها متوفٍ، ووالدتها امرأة بسيطة.

- حسنا... المهم أنكما متّفقان... والدتك وأنا نرغب في أن نراك سعيدا.

توقّفت السيارة أمام إحدى العمارات في الجانب الغربي من المدينة... وفتحت باب الشقة في الطابق الثاني سيدة جميلة، هادئة الملامح، محتشمة، متأنّقة في غير تبرّج وقادتهم إلى غرفة متوسطة الحجم، فيها أثاث متواضع ينم عن ذوق رغم بساطة الديكور.

وبينما السيّدة تتمتم بعبارات الحفاوة والترحيب كان عبد الرحيم يترنّح، يكاد يسقط من هول المفاجأة، يحاول التماسك بصعوبة.... والسيطرة على نفسه.

هذه المرأة... يا الهي!

هل هي أخرى تشبهها؟... مستحيل... إنها هي... لن يتوه عنها ولو كانت بين آلاف النساء.

إنها ريحانة!

جلس الجميع... السيدة وأخوها الأكبر وابنها وعم أبنائها، وجلس عبد الرحيم بين زوجته وابنه وقد أطبق عليه الذهول فلم يستطع أن يركّز فيما كانوا يتحدّثون فيه.

كان مندهشا، مأخوذا، ينصت في فرح وحيرة إلى همس روحه ودقات قلبه كأنما يكتشف لأول مرّة أنّ له قلبا يدق... إنّها هي... هنا... حضورها يملأ المكان وهي لم تتغيّر... ربما قليلا فقط، بل إنه يجدها أجمل وأكمل وأروع مما كانت عليه... لم تنل منها يد الأيام ولم تعلق بها شوائب الزمن، حتى أنها تبدو فقط في الثلاثين من العمر أو أقل.

بعد قليل دخلت الابنة فسلّمت... ثم وزّعت العصير وقد تورّدت وجنتاها من فرط الحياء... تشبه أمها كثيرا... في لون العينين والابتسامة الخجولة... والقامة الهيفاء.

ولكي يخفي عبد الرحيم ارتباكه واضطراب جوارحه، انشغل بالحديث مع عم الفتاة، محاولا تجاهل رغبة ملحّة في أن يلتفت إلى حبيبته، يحتضنها، يقبّل بعينيه عينيها، ووجهها وثغرها... انتقاما لقلبه من والده ومن قسوة الغياب ومن الزمن البخيل... الضنين.

وعلى حين التفاتة تسمّرت نظرته فوق صورة كبيرة في إطار... على الحائط.

أخذ يقلّب عينيه بين الصورة والسيدة وهو في حالة من الذهول والحيرة.

وتقطع عليه السيدة حبل الدهشة:

- آه... هذه أنا مع أختي ريحانة... أنت أكيد مندهش من الشبه.. نحن توأم... لكن ظروف صعبة فرّقتنا منذ الصغر... فترعرعت أنا عند خالتي بعيدا عن العائلة ولم تكن إحدانا تعرف بوجود الأخرى إلا من بضع سنوات.

ثم تضيف:

- بالمناسبة... هي ستعود غدا من فرنسا... أتمنى لو تشرّفوني بالحضور لأعرّفكم عليها... ونتعشى معا.

غاص قلبه في صدره وتمتم بكلام لا يدري معناه.

قبيل المغرب، غادروا وقد اتّفقوا على أن تكون الزيارة القادمة أكثر رسمية، ويتم فيها تحديد موعد الخطوبة والزفاف.

ولم ينم عبد الرحيم ليلتها، استبدّ به الأرق وهو يرى الماضي بكل تفاصيله يغزو مساحات الحاضر.

صورتها ملأت فكره ووجدانه، هيّجت حبّه، وتقلّص الزمن ليصبحَ جزءًا من الثانية... هي لحظة التقاء عينيه بعينيها... من سنين... قبل الفراق.

كيف يمكن للحظة أن تساوي العمر؟

خلا بنفسه في غرفة متعلّلا بالتعبو قد ثارت براكين ذاكرته الخامدة... لافظةً حِمَمَ الشوق والعشق.

وطفا الماضي على سطح حياته كأنّه حدث بالأمس فقط.

يا إلهي... أيعقل هذا؟ بعد كل هاته السنين؟ ما هذا الإحساس.. هذه النشوة السابحة في دمي لمجرّد هفهفة اسمها وحديث عابر عنها؟

هذا الدفء في عروقي.. والدماء في شراييني... أخرى... جديدة... نقيّة!

أيّ انتشاء! كأنّه البعث بعد الفناء.

"الآن أفهم لمَ لم أستطع أن أستمتع بحاضري "السعيد".

كيف يكون لحاضرك معنى حين ينقصك الماضي؟

آهٍ... يا حبيبتي... أما سافرتِ طويلا في الصمت وأبعدتك دروب الغياب؟ أما انتهينا؟

فكيف أجدك الآن هنا... ملء الأنفاس والرئة، ملء قلبي وقدري... ما الذي يحدث لي؟ كأنّني ما توقّفت عن حبك أبدا.. كأنّك ما رحلت يا مليكتي... ما ترجّلت عن صهوة القلب ولا غادرتِ شرفة الروح يا حبيبة العمر الذي أبحر بعدك في الفراغ.

وبات ليلته طريح الأفكار، صريع الوجد.. يتقاذفه الشوق والذكرى والخوف من الآتي.

لم يغمض له جفن إلا مع انبلاج الفجر حين استطاع أن يغفو قليلا وهو على يقين بأنّ لقاءه بها سوف يقتلع حصون ذاته، ويشرّع الأبواب للعاصفة.

obeikan.com

بطاقة صفراء

عشر دقائق وتبدأ متعتي..

لكن.. من يطرق بابي في هذا الوقت؟من يجرؤ؟

أسرعت كي أفتح، محاذرا أن أرتطم بالطاولة في ندلق كوب الشاي الساخن.

كنت، كالعادة، قد هيّأت للمتعة طقوسها. الشاي. علبة السجائر الموبايل.. تأكّدت من أنّهم غلق الوسائد. وسادتان عند رأسي، وثالثة عند قدمي أحتاجها لأرفسها أو أضربها الحائط تعبيرا عن سخطي أو استيائي.

مضى وقت طويل مذ توقفت عن السفر ومتابعة المباريات مباشرة من على المدرّجات. سنّي لم يعد يسمح ولا الوقت يسعفني. وما عدت أحتمل الضّوضاء والهرج والزّحام.

أحنيت قامتي فارتطمت عيناي بوجهه المستدير، شعره أسود كثيف متجمّع أكثره فوق جبهته الضيّقة. عيناه سوداوان واسعتان، تبرقان بوميض لا نبصره سوى في عيون الأطفال.

- أهلا صابر.

- مساء الخير عمي. القناة عندنا لا تعمل. قالت لي أمي اذهب وشاهد المباراة عند عمك سليم.

تضايقت قليلا، لكني أجبرت نفسي على الابتسام. أشرت له رأسي أني دخل. أمرٌ غير متوقّع حقا. أكره الأمور المباغتة. لا أعرف كيف أتصرّف حيالها. اعتدت أن أكون وحيدا في بيتي. وعكس غير لا أحب أن يشاركني أحد مشاهدة مباراة. لكن تخييب أم لطفل صغير يعدّ جريمة. ثم هو صابر الجميل، المؤدب. يقيم مع والدته الأرملة الشابة وجدّته المسنّة في الشقة التي فوق شقّتي تماما.

كثيرا ما تجمعني الصدفة، على السلالم، بوالدته.. وكم كنت أخجل من التحديق فيها. أسرع خطاي مكتفيا برد التحية، لكنها لا تدري بأني ما أن أدخل شقّتي حتى أجري صوب النافذة، أراقبها منها وهي تعبر الشارع، وشيء أحاول تجاهله يهز كياني لكل خطوة تخطوها. ومع ذلك لم أحاول الدنوّ منها. لم أفكر في ملاحقتها أو مغازلتها أو التواصل معها بأي شكل كان. لم تكن تلك عادتي حيال الجنس اللطيف. لكن ذلك كان وأن أشاب. تغيّرتُ مع الزمن. زواجي ثم تجربتي مع الطلاق غيّراني.

أدركني التعّقل أخيرا وأصبحت رجلا ناضجا يحسب للمغامرة ألف حساب. في الحقيقة لم أرد أن أتغير لكنه حصل. النضج أيضا نحن لا نصله بإرادتنا، بل رغما عنا. لم

يكن سهلا أن التزموا ألزم جانب العفة. كثيرا ما قلت لصديق لي،أعزب، بأنّ المطلّق أتعس من الأعزب ومن المتزوّج. صعبٌ أن تعيش الجحيم ولكن الأصعب أن تتذوّق نعيم الجنة ثم تجبر على الهبوط منها.

مؤكد أنّ آدم كان أتعسنا جميعا.

فيما بين الشوطين، قمت لكي أسخّن الشاي. حين عدت انتبهت إلى أن الصغير قد ذهب في نوم عميق. تدحرج رأسه فوق كتفه وارتخت أطرافه. لم أدر ماذا أفعل. عدّ لتمن وضعه. نظرت إليه وابتسمت. أجمل ما في الكون طفلٌ نائم في مثل سنه تقريبا عشر سنوات كان ابني حليم حين دقّت بيني وبين والدته نواقيس الطلاق. لم نتفق. حاولنا لكننا لم نفلح. قرّرنا الانفصال. انفصلنا بهدوء غير مألوف. لم يحدث طلاقنا تلك الزوبعة المعهودة داخل الأسر. والغريب أننا بعد انفصالنا اتفقنا بشكل عجيب! اليوم نكاد نكون أصدقاء. تتصل بي باستمرار. تستشيرني في أمر حليم. أهاتفها أيضا. أسأل عنها وعن الولد. أذكر أنها مرة دعتني للعشاء بمناسبة عيد ميلاده.

ربما يجب أن ينفصل كل الأزواج الذين لا يتّفقون كي يدركوا أنه بإمكانهم الاتفاق!

يالغرابة الفكرة.

اللعب يسير بوتيرة بطيئة، مملة. لم أستطع أن أصمت ورحت أعطي رأيي،بصوت مسموع، فيما كان يجب أن يكون عليه اللعب.

تذكرت والدتي... "كل منه وخارج الملعب لعّاب"، كانت تقول.

طرق آخر على الباب.

مباغتة أخرى.

الفتنة أمامي.. تقف على قدميها.

- أتيت لأصطحب صابر. أخشى أنّه أزعجك.

الذي يزعجني هو هذه المحرقة في صدري يا سيدتي.

أخبرتها أنه لم يفعل... أنّه خلد للنوم ومن الأفضل تركه ينام إلى الغد.

لا أدري كيف قلت ذلك ولا لماذا. كأن ما أردت أن أحتفظ ببعضٍ منها عندي لمدّة أطول.

-حسنا. شكرا.. معذرة على الإزعاج. تصبح على خير.

ابتسمت. صعدت السلم وهي تحكم لفّشالها على رأسها ونحرها.

كدت أقول لها "لا.. لا تذهبي. ابقي قليلا" لكنني تماسكت.

شيّعتها بقلبي بينما عطرها يسافر في العمارة وفي بيتي... وفي دمائي.

لم تغتسل مساحة بيتي بعطر أنثويّ منذ سبعة قرون.

عدت لأتابع المباراة. أخفضت صوت التلفاز كي لا يوقظ صابر. كأنّي صرت أحبه فجأة هذا الصغير. ماذا؟بطاقة حمراء؟ لا.. لا.. صفراء. يا لثوبها! مزيج من اللون الأصفر والأخضر. لأول مرة أنتبه أنّ الأخضر والأصفر يمكن أني نسجما وبشكل جميل... يا لشعرها وعينيها وقوامها ونهدها.. يا لرائحة الأنوثة حين تغشاك فتخدّر وعيك، وتخلّفك مشدوه الروح، مشوّش الذات، مستلب الإرادة.

رأيتها بوضوح رغم الإنارة الضعيفة في سلالم العمارة. جميلة. تفاصيل أنوثتها صارخة. شفتاها ممتلئتان، شهيتان، كأنهما ما خلقتا سوى للتقبيل. بضع ثوان وهي تقف قبالتي عند عتبة الباب كانت كافية لقلب كياني... لكني استغربت جرأتها.. ماذا لو رآها أحد الجيران؟ أكره جرأتها. بل.. أخشاها.. لا لا.. الآن أنا أحبها أكثر... لأنها جريئة. لمن البطاقة؟ آه.. لاعب متهوّر هذا. لو كنت مكان المدرب لما ضممته للفريق.

لو أن يطلب تمنها أن تدخل لتحمل طفلها بين ذراعيها وتصعد به إلى الشقّة؟ تربه لكانت ستفعل؟

وما كنت فاعلا أنا لو أنّها أصبحت في قلب الغرفة؟ ولكن ما الذي منعك عنها كل ذلك الوقت أيها الأبله؟ لا شيء. لا أحد سواى. أنا تعمّدت أن أنشغل عنها وعن سواها.

نعتب على الحياة كونها لا تمنحنا الظروف الملائمة لاحتضان اللذات، وحين تتوفر الظروف نتفنّن نحن في خلق ظروف أخرى / غير ملائمة.

كنت أتعمد أن أشغل وقتي بأمور كثيرة.. لا يهم ما تكون. المهم أن لا أجد وقت الأركب بحر الشهوات. حتى أنّني جرّبت السياسة. انخرطت في جمعية تنشط محليا. العمل السياسي يجعل كتوهّم وتوهم غيرك بأنك مهمّ جدا، ومشغولٌ على الدّوام، وأنّ كلا تم لكل نفسك ثانية واحدة، وأنّ ما تقوم به خارقا للعادة، مع أنّ كفي حقيقة الأمر لا تفعل شيئا ذاقية، مطلقا.. كلا لأشياء غير ذات القيمة أيضا تأتي من فوق!

تصبح على خير، قالت. أي خير يا فاتنتي وقد أضرمت عيناك في دمي حرائق الحب والرغبة؟ أنا الذي حشر تجسدي

في جلباب قد يسوأ لزمت شهواتي بحمية قاسية.. خشية أن يجرفني التيار إلى حيث لا رجوع.

ولم أستطع النوم. بدا الليل طويلا جدا. أطول من كل الليالي. لا بد أنّ أوسكاروا يلد قد واجه ما واجهته لكي خلص إلى قوله "أستطيع أن أقاوم كل شيء عدا الإغواء".. وكانت مغربة حقا. حدّ الجنون، وكلما حولنا مغر.. المساء الربيعي، صمت العمارة، طفلها النائم، رغبتي المستيقظة، جوع السبع العجاف، سريري الذي ملّ احتضاني منفردا كحصان موبوء أبعدوه عن القطيع.

وذلك الرجاء في عينها وخلف ابتسامتها.

لا يحتاج الرجل لأن يكون عبقريا لكي يفكّ شفرة النداء أو يترجم لغة الرغبة في عيون أنثى.

نمت مع أواخر الليل، بعد أن تكفّلت ريشة خيالي برسمك لمعالم اللذة. نمت وهي في حضني، غير أن يلمح تظل كفٍت لوّ حب بطاقة صفراء.. داخل رأسي.

في الصباح حضّرت لصابر كوب حليب. كانت هناك علبة بسكويت في الخزانة. وضعتها أمامه. لم يبد مستاءً من مبيته خارج حضن والدته. بالعكس. بدا مرتاحا جدا كأنه معتاد

على المبيت عندي. قد يكون مردّ ذلك إلى حاجته للإحساس بوجود الأب. مسكين صابر.

في طريقي إلى العمل اتصلت بابني "ألو.. صباح الخير. كيف حالك. أتصل لأقول لك أنّه يمكنك أن تأتي للعيش معي.. أما زلت ترغب في ذلك؟حسنا.. أخبر والدتك وأجمع أغراضك. سأنتظرك".

وقبل أن أنهي المكالمة "نسيت أن أقول لك.. لا بد أن تكون هنا قبل يوم الأحد".

الأحد مساءً هو موعد مباراة أخرى مهمة. أشعر بالقلق. لا أريد أن أكون لوحدي.

أكيد سوف يأتي صابر ليشاهد المباراة عندي، وأكيد سوف يغرق في النوم.

وأكيد سوف...

من أجل صديقتي..

في تلك اللحظات أحسست بكرهي الشديد لها.

تمنّيت لو أنها تمرض أو تموت أو أن معلّمتي توسعها ضربا، وتجعلها تقف في آخر الحجرة ووجهها إلى الحائط... لكنها اكتفت بفكّ تشابكنا فخلّصت شعري من قبضتها وخدّها من أظافري، ونهرت التلاميذ الذين وجدوا في شجارنا على من يفوز بالجلوس على المقعد الأوّل، فرصة للفرجة والفوضى والهرج.

عاد كلّ إلى مكانه وعمَّ الهدوء، وبقينا طيلة اليوم، سلمى وأنا، ترمق إحدانا الأخرى بنظرات محمومة كأنّنا ألدّ الأعداء لكن في صبيحة اليوم الموالي، وجدتها واقفة أمام مدخل المدرسة.

ابتسمت لي. ابتسمت لها.. وتحدّثنا كأنّ شيئا لم يكن.

من يومها أصبحنا أروع صديقتين.

كانت سلمى في مثل سني.. جميلة القسمات، رقيقة الملامح، في وجهها مسحة من المرح الدائم، حتى أنه من الصعب أن تميّز ما يعتريها أحيانا من مشاعر غضب أو حزن.. وفي عينيها

براءة عجيبة تجعلك تشفق عليها من مداعبة الريح وتود لو تحميها من قبلة النسيم أو رشّة المطر.

تركنا مقاعد الابتدائي وانتقلنا إلى المتوسطة ثم الثانوية.. كنا دائما معا، في الفصل والمكتبة. كانت أختي التي لم تلدها أمي ومرآة تعكس أفكاري وأحلامي.. قلّما اختلفنا حول فكرة أو موضوع. وكنا، كما هو شأن الصبايا في مثل سنّنا نوشوش بأحاديث الحب والغرام ونترقّب الوقوع في شرك الهوى.

- أما أنا فلن أحب إذا كان حبيبي سيبعدني عنك.. أو ما رأيك.. تعالي نحب نفس الشخص؟

ونغرق معا في ضحك عفويٍ بريء.

و... زارنا المبعوث الخفيّ الذي كنا نرهبه ونحلم به. مرّ أولا بقلب سلمى فأربك دقّاته، مسح بكفّه الرقيقة على وجنتها فصبغتا بلون الورد، وضرب بعصاه السحرية ضربا خفيفا على رأسها فامتلأ أحلاما وردية شفّافة جميلة. كان ذلك حين التحق بثانويتنا من مدينة بعيدة طالب يدعى محمود.. شابٌ شديد الوسامة، فارع القامة، أسمر البشرة، فاحم الشعر، لطيف جدا ومؤدّب.. لاحظت على سلمى ارتباكها واحمرار وجنتها كلما أتى أحد على ذكر اسمه أو اجتمعنا به في ساحة الثانوية أو المكتبة.

- سلمى.. صارحيني. هل تحبينه؟

- من.. من تقصدين؟

- محمود الطالب الجديد في الثانوية. لن أتركك حتى تخبريني بكل شيء.

- لا أدري.. أشعر بإحساس غريب لم أحسه من قبل. أحب أن أراه وأحزن حين يبتعد.. وكلما أنظر إليه يرتجف قلبي وتتلاحق أنفاسي وكأنّ.. كأنّ.. كل جارحة مني تكاد تطير من الخفقان. قولي لي.. هل هذا هو الحب؟

- أعتقد هذا هو الحب.. لقد جرفك التيار عزيزتي.

- لا تسخري مني.. أرجوك.. دبّريني ماذا أفعل.. كيف أعرف شعوره نحوي؟

- لا تفعلي شيئا.. دعينا نرى ما يكون منه أولا.. اصبري.

ولم تستطع سلمى أن تصبر.. كانت تتعذّب ولا يحس بعذابها سواي.. لم يكن يسعدها حديث سوى عنه.. ولا تنشرح نفسها إلا إذا رأته أو كلّمته.. وعشت معها أحاسيسها قطرة قطرة.. شاركتها لوعتها.. وشوقها... قاسمتها قشعريرة الحب، وزفرة الوله، وأحلام اليقظة. كل آهة تبدأ في صدرها تنتهي في صدري وكل حلم يراود خيالها يمرح في

خيالي.. صرت أردّد اسم حبيبها لأنها تحب اسمه، أختلق الأسباب لكي أكلمه لأن ذلك يسعدها، أسعى إلى لقائه لأن ذلك يبعث الحياة في عينها و... ابتسامتها.

وأفقت يوما على الحقيقة.

أنا أحب محمود وأندفع نحوه بكل وجداني.

انتفضت، صرخت.. لا.. غير معقول.. لا يمكن!.. تصوّرت الحب واقفا يشير بيده ويقهقه.. انظروا كيف ألعب بقلوب الصبايا.. فلتعترفوا بقدرتي وجبروتي. ثرت على نفسي.. لا يمكن أن تكوني بهذه الخسّة. لقد وقعت سلمى في حبّه قبلك. إنه ملك لها. كيف تسرقين فرحتها وبريق عينها؟

حاولت مقاومة مشاعري.. وخنق أحاسيسي فلم أفلح واحترت هل أرثي لنفسي أم لصديقتي وأنا أراها تذبل، يوما عن يوم، يشحب لونها ويقل مرحها وتستقر الدموع في عينها.

لم أعد أدري هل أبكي عليّ أم عليها.

وقرّرت أن أفعل شيئا. مهما كلّفني الأمر.

"غدا سوف ألتقي بمحمود".

مرّ بي الليل رهيبا.. تقلّبت فيه على جمر الحيرة والتردّد.. أصوات تعصف برأسي.. أفكار تتقاذفني.. غبية.. ما الذي

ستفعلين؟.. كيف تضحّين بحبك.. نعم.. التقي به ولكن صارحيه بحبك أنت.. وسلمى سوف تفهم وتنسى.. لا.. لا... مستحيل! هل ستغدرين برفيقة عمرك وحبيبة قلبك؟ كيف تهدمين ما بنيتماه منذ الصغر؟

واعدت محمود في قاعة المطالعة عند انتهاء الحصة... والتقينا.. تحدّثنا طويلا... وبذكاء جسست نبض قلبه.. واختبرت مشاعره فأخبرني بأنّ قلبه خالٍ ومازال ينتظر فتاة أحلامه وأنه معجب بنا صديقتي وأنا ويحترمنا.. جدا... وأنّ صداقتنا مضرب الأمثال...

كنت أستمع إليه وقلبي يرقص فرحا وإعجابا وحبّا، وكادت عزيمتي أن تنهار وقوّتي أن تتفتّت أمام نظرة عينية وسحر كلامه وعذوبة صوته.

و.. لكني طعنت قلبي بيدي وأنا أبتسم.

نجوى والذئب...

مشهد أوّل...

الطبيبة صديقة حميمة لخالتي. كانتا معا في الجامعة. اتّصلتُ بها بالهاتف. أخبرتها بما حصل، من بين أنفاسي المتلاحقة ودموعي التي لم أستطع كبحها. على نجوى أن تخضع للفحص، حالاً. يجب التأكّد من حجم الكارثة أولا.. ثم نفكّر فيما يمكن فعله.

هدّأت الطبيبة من روعي. سألتني لمّ لم نتقدّم بشكوى. في الواقع، لم نفكّر في ذلك ثم كيف يمكن التعرّف على ذئب بين قطيع من الذئاب؟

كلّهم نفس الصورة.. ربطات عنق حريرية وأحذية ملمّعة وابتسامات صفراء..

العيادة على بعد أميال من الحيّ الجامعي. ولجنا من الباب الخلفي كما طلبت منا.

لم تسمح الطبيبة لي بالدخول. أشارت بيدها أن أبقى مكانك. لكنها تبسّمت متعاطفة قبل أن تتّجه إلى غرفة

الفحص وهي تمسك بذراع نجوى التي كأنّما لم تكن تمشي بل تزحف ببطء مثل حيوان جريح.

أُغلق الباب في وجهي فتخطّفني الظنون، وفي رأسي تقافزت ألف علامة استفهام.

انتبذت كرسيا قرب النافذة وتقوقعت أنتظر.. الانتظار أبشع وجهٍ للموت. يا الهي. لا. أرجوك. لا تسمح بذلك! احتضنت جسدي بذراعي المرتجفتين. شعرت بالصقيع يسري في عروقي. لم تكن الغرفة باردة. هي برودة الخوف. أكيد. قدمي اليمنى تضرب الأرض بحركات لا إرادية، سريعة، متواصلة.

ماذا لو..؟ أخبّئ رأسي بين كفّي ثم أرفعه وأشيح بوجهي نحو اللاشيء..

لا.. لا.. مستحيل.. يا إلهي. نجوى لا تستحق. ليست من ذلك النوع. ستموت لو.. ستنتحر... أرفض التفكير في ذلك.

أحملق في الشارع من خلف النافذة... لماذا هي الحياة بهذه البشاعة؟ لماذا يصرّ البشر على جعلها صعبة ومرّة وقذرة؟

لماذا يصرّ الذئاب على جعلنا نكفر بوجود الأيائل والأرانب والفَراش؟

أدقّق في زحام المارة.. من بعيد.. ترى من منهم الذئب لو تسقط الآن كل الأقنعة؟ من يترصّد ذات الرّداء الأحمر ويتحيّن الفرصة لتصيّد البراءة؟

ما عدت أومن البراءة.. كرهتها.. للبراءة مرادفٌ واحدٌ فقط. هو البَلَه!.

يا إلهي.. ما أقسى أن يذبحك إيمانك و تصبح الثقة سكّينا يحزّ رقبة عمرك. ليس هناك حماقة أكبر من الثقة، وهي خطيئة في حق نفسك أن تتوقّع الخير والجمال في عالم تسكنه الغيلان وتجوس في أزقّته العقارب والثعابين...

الحياة لا تحمي المغفّلين يا نجوى يا صديقتي..

هل تذكرين حديثنا؟ حاولت دائما إقناعك بأن تتوقّعي الشّر قبل الخير، في كل البشر.. ودائما. كنت تقولين.. لا.. الشر دخيل، ليس أصلا في الإنسان، الخير فهو الفطرة فينا.

تفلسفٌ فارغ... لا أدري بمَ نفعك الآن!

نظرت في ساعتي. وقفت. جلست. وقفت مرّة أخرى. ذرعتُ الغرفة الضيّقة جيئة وذهابا. يا رب.. اعمل على أن ينتهي هذا الكابوس. نجوى.. لم فعلتِ ذلك؟ كيف اندفعتِ؟ لم يحصل أن تصرّفت إحدانا بطيش. أين كان

عقلك حين خطوت داخل شقّته؟ ثلاث سنوات انقضت ونحن هنا في هذه المدينة المجنونة، المدينة الصاخبة القاسية التي لا تمدّ يدها لمن يسقط، بل ما أن تتعثّر حتى تدوسك بأقدامها ليتعفّر رأسك في الطين. لم يبق سوى فصلين دراسيين ونغادر، إلى قريتنا الهادئة وأهالينا الطيبين. وها أنت ترين... خطوة صغيرة في الاتجاه الخطأ ويكون الانزلاق... وحين ننزلق علينا أن نتوقّع السقوط!

فتحتُ النافذة. سرت في أوصالي رعشة خفيفة. هناك في آخر الشارع محطة للحافلات.

تقزّزت وانتابتني رغبة في التقيؤ.

كم كرهت المحطّات! لم تكن أمي توصيني حين أغادر إلى الجامعة سوى بالحذر من ذئاب المحطة..

"كوني يقظة.. افتحي عينيك جيّدا حين تصلين المحطة".. تقول لي.

عالم غريب حقا هي المحطة.. نقطة البدايات أو النهايات.. ومجسّمٌ صغير للدنيا الكبيرة.. فيه من كل الأصناف.. المجانين. المدمنين. اللّصوص. الشحّاذين. المحترمين. المتشردين. الفارّين من دنيا ما. القاصدين دنيا ما. أصحاب السّوابق أو اللواحق.

السعداء. البؤساء. رجل غاضب. امرأة تعرض مفاتنها. صبية يتصيّدون الجيوب.

والملفت للنظر أنّ الكل يحمل شيئا.. كلّهم.. جريدة. سيجارة. حقيبة. قفّة. حقدا دفينا. سرّا رهيبا. همّا تنوء به الجبال. خطّة شيطانية لجريمة ما.

المحطة.. مرفأ الانتظارات.. مجمع الأقدام والأقدار وملتقى الأحلام و... الكوابيس.

مر دهرٌ من القلق قبل أن يُفتح باب الغرفة.

ظهرت الطبيبة أولا ومن خلفها نجوى.

ما قبل الأوّل...

توقّف بمحاذاتها تماما.

- تفضّلي آنسة. سوف أوصلك حيث تريدين.

ليس شابا مستهترا من الذين يستعرضون مركباتهم وقمصانهم المستوردة المفتوحة على صدورهم المشعّرة، بل رجلا محترم المظهر، في العقد الخامس من العمر، يضع نظّارات طبية، أنيق لدرجة تلفت الأنظار.. بذلة سوداء وربطة عنق من حرير، وبياض الوقار منتشر على صدغيه.

نبرته رزينة، وعلى وجهه أمارات النبل.

رأت من اللباقة أن ترد عليه، لم يكن يعاكس بتلك العبارات التي تلاحقها في كل مكان..

- لا. شكرا. سأنتظر سيارة أجرة.

- سيارات الأجرة في إضراب آنستي. ولو كانت وجهتك الجامعة فأنا معيد في كلية الحقوق وعندي اجتماع هناك بعد لحظات.

ما العمل الآن؟ تقلّب نظرها يمنة ويسرة. تتمكّن منها الحيرة..

تبا لهؤلاء السائقين! تبّا لبلد لا يتقن سوى لغة الإضرابات.

لا يمكن أن تنتظر أكثر. موعد المحاضرة بعد دقائق. المحطة شبه خالية هذا الصباح، على غير العادة.

تغلق باب السيارة في حذر وتجلس، متردّدة، خجلة، ولكنّه غاية في اللطف.. في الطريق يحدّثها عن متاعب التدريس ومشاكل الطلبة.. يستفسر منها عن دراستها ومشاريعها ثم قبل أن ينحرف إلى طريق الجامعة يستسمحها المرور ببيته ليأخذ ملفّا مهما نسيه هناك.. ويصطحبان أخته التي تدرس في نفس كلّيتها.

- لا يمكن أن تبقي في السيارة آنستي. تعالي أعرّفك بأختي وتساعداني في حمل بعض الكتب إلى الكلية.

نعم. وماذا في ذلك.. يا الله! كم هو لطيف ومؤدّب!

يدلفان إلى الشقّة.. مرتّبة وجميلة.. رواقٌ طويلٌ واسع يؤدي إلى غرفة ذات باب عريض..

بقيت واقفة في انتظار أن تظهر أخته ولكنها وحدها... معه. لا أثر لأحد.

جرت نحو الباب، وقد انتبهت إلى المصيدة التي وقعت فيها. الباب موصد.. بإحكام.

- تعالي هنا... لن أؤذيك. لا تخافي. سنقضي وقتا ممتعا معا ثم أوصلك إلى الجامعة..

يشدّها من ذراعها.. يجذبها داخل الغرفة.. تحدّق في سحنته.. وقد تسابقت الدموع إلى عينيها.. لا أثر لذلك الرجل المحترم الذي كأنه منذ لحظات.. وجهه محتقن، عيناه تلمعان بوميض غريب، مخيف، العروق في ظاهر يديه متصلّبة كأنّ الدّماء ستتفجّر منها.

تكاد نجوى أن تفقد صوابها من الخوف... تقلّب عينيها في الشقّة.. تتوسّل إليه أن يرحمها ويتركها تمضي.

"أين أنا؟ أين العالم؟ أين الناس؟ لماذا لا يطرق أحدهم الباب الآن أو تفتح النوافذ؟.. نعم. النافذة. سأفتحها وأصرخ، بأعلى صوتي، لا تهم الفضيحة، المهم أن أنقذ نفسي...الآن".

تجري نحو النافذة، لكنه أسرع منها. لفّها من الخلف.. بقوّة.. مدّ ذراعيه الطويلتين وأحكم إغلاق النافذة ثم أدارها إليه وكتم صراخها بشفتيه قبل أن يلقها أرضا.

نجوى تبكي وتصرخ وتتخبّط تحت ثقل جسده مثل سمكة في شبكة صياد. تحاول التملّص من ذراعيه، لكن قوّتها تنهار أمام قوّته، تدريجيا. قبضة يمناه تمسك بكتفها، بشدّة، مثل كمّاشة.. ووجهه كلفح النار يغوص في جيدها وصدرها.. بينما يده اليسرى ترفع عنها ثوبها...

يتمطّى الوقت حين يغرقنا الخوف، وفي عمر الفزع تطول الدقائق لتصبح شهورا، وتتمدّد الثواني فلا ندري متى تنتهي.. وكان الفزع قد ملك على نجوى كل حواسها، وكان جسدها قد تخدّر تماما، وتصلّب كقطعة صفيح باردة..

و... بعد دهر ونيف، حين وصلها الإحساس بأن لهيب أنفاسه خفتَ وحركات جسده فوق جسدها توقّفت. انتبهت. دفعته عنها بكل قوّتها. بما تبقّى لها من قوّة... وقامت وهي بين الصحو والغثيان... تحاول استرجاع وعيها بما حدث.

تتلفّت حولها في الغرفة. تدور في الشقة... الحمام.. المطبخ.. الثلاجة.. تفحتها... بقايا أكل، بيض وجبن، وبضع قارورات خضراء... كانت تبحث عن شيء معيّن. نعم. وجدته. فتحت بأنامل مرتعشة القارورة ودلقت نصفها في جوفها، بسرعة ودون تفكير. أحسّت بطعم الحموضة في حلقها وأنفها وأحداقها.. في جزء من الثانية صوّر لها خوفها كل شيء.. فتذكّرت الخلّ.... موضوع قرأته في مجلّة. لا تذكر تفاصيله.. عن الخل والحمل أو منع الحمل ..شيء من هذا القبيل.

دقّات محمومة على باب غرفة في إقامة جامعية للبنات. يُفتح الباب.. يُطلّ وجهٌ أكله الفزع. تضرب الفتاة صدرها بكفّها لفظاعة المنظر، بينما نجوى، نصف ميتة، تتهالك بين ذراعي صديقتها.

الأخير.

رحلة الإيّاب. شابّتان تجلسان في المقاعد الأخيرة في حافلة متخمة تطوي إسفلت الطريق. في حقيبة كل منهما شهادة جامعية وصرّة من الذكريات. أغمضت نجوى عينيها وألقت برأسها إلى الخلف. سرحت في العمر القصير الطويل الذي خلّفته وراءها.

وداعا أيتها المدينة التي لا ترحم.

من نافذة الحافلة تبدو الأشجار والبيوت القريبة والحقول والعصافير مسرعة كأنّها هاربة من قدر ما، ومن نوافذ الذاكرة تتراقص أمام نجوى صورٌ وأماكن وملامح ومواقف، فلاشات من حزن وفرح، وعلى زجاجٍ شفّافٍ صقيلٍ لإحدى النوافذ ترتسم خدوش سوداء في شكل ذئب بربطة عنق.

مخرج:

تركنا العيادة .

في الخارج، أمسكت بيد نجوى.

ضغطت عليها برفق.

نظرت إلى السماء.

تنفّست عميقا وملأت رئتي بالهواء.

obeikan.com

هل كان حبّا؟

حسبت أنّ تلك كانت آخر رسائلي إليك..هل تذكر؟

لكنها أنا أكتب إليك من جديد.

هي رسالة لن تصلك على أية حال ولن تقرأها..

لا أفهم لِمَن كتب رسائل نعرف مسبقا وعن يقين بأنها لن تصل إلى أصحابها؟ ربما لأننا لا نكتب دائما إلى الآخر، بل نكتب لنا نحن، أو للآخر الساكن فينا أبدا "ما الذي يحدث حين يلتقي رجل غيرُ عادي بامرأة غير عاديّة؟".

سألتني ذات لقاء كأنّ ما تسأل نفسك.

لا أذكر بمَ أجبتك... لكنّي أفكّر في ذلك الآن... نعم ما الذي يحدث؟

للأسف يا صديقي، ويا رفيق الزمن الجميل، نحن، أو لنقل القدر / عذرا أيها القدر... هذه خيبة أخرى نعلّقها على مشجبك / القدر لم يسعفنا في تمديد عمر اللقاء فضيّعنا فرصة أن نعرف الذي كان سيحدث حقا.

أذكر أنك قلت لي وأنت تبتسم وتمعن النظر في عينيّ... يوما ما، أنتِ وأنا، سوف نبتدع رؤية جديدة في العلاقة بين الذكر والأنثى، وسوف نؤسّس معا "المدرسة اللاعادية في الحب".

كان ذلك ونحن في أوج الشباب، أيام كان للأحلام قداستها وبكارتها ونقاؤها، وكانت العواطف مغلّفة بسياج العفاف والحياء.. والحب ينمو ويزهر في قلوبنا الغضّة بأناة واحتشام.

جمعنا عشق الأدب والكتب وطوّقتنا معا غواية الكلمات، وكنا، رغم لقائنا يوميا بحكم الدراسة، نفضّل الرسائل كوسيلة لتواصلنا.

وكانت، منمّقة بخط يدينا، مشبعةً بالشعر، مترعة بالشوق، معطّرة بالأخيلة، متخمة بالتساؤلات عن الوجود والحب والإنسان، تسافر منك إليّ ومنّي إليك تحت أجنحة الكتب التي كن انتعب في اقتنائها، وكانت تدور بين مجموعتنا من عشاق القراءة كما تدور كؤوس الحبب.. سكرنا بـ "ما جدولين" و"البؤساء" و"كنا خجولين" و"اللاز" وغيرها كثير.

هل تذكر إحدى رسالاتي التي وصفتها بالقنبلة؟

كنت قد طويتها داخل "سأهبك غزالة " راجية منك أن تقرأ الرواية... كتبتَ لي فيردّك: "... هذه ليست رسالة بل

قنبلة... قنبلة في كتاب!.." وأضفت... " حبيبتي أنت أروع بطلة متخصّصة في التفجيرات الروحية"!

طبعا يا روح البراءة لم يأت "يوما ما". خان ميعاده. ولم نؤسّس سوى لخيبات تناسلت وتكرّر تك لعنة مجوسية.

تذكّرتك هذا المساء.. فانتشيت.

أحسست بالدفء والسكينة وغمرت روحي حالة من الصفاء أجدها دائما حين أفكر فيك.

ما أجمل تلك الأيام وما أنقاها!

من قال أنّ جرار الذاكرة لا تمتلئ بغير الأحزان، ولا تختزن سوى الدموع والآهات..؟

كمن ظلم الذاكرة وفي مجلّداتها، دائما، فصل واحد على الأقل ربيعي، وردي، مضيء... مشرق، وجميل في كل شيء، حتى في أحزانه.

ذلك كان فصلك.

أليس غريبا هذا الحنين إلى ماضينا يا صديقي؟

ولماذا يظل الماضي حاضرا فينا، يأخذ كل هذه المساحة من تفكيرنا وشعورنا وأبجديتنا، فنكتشف أنّنا نحياه أكثر من مرّة واحدة.. نجتره ونستذكره وندوّنه... غري بأنّنا لا

نكتب كثيرا عن المستقبل, لا وجود للمستقبل إلا في قصص الخيال العلمي! ليس سوى الماضي، نستعيد أحداثه، ننبش في زوادة الذكريات بحثا عن بصيص حب نقيّاً ولحظة مشاعر بكر صادقة.

لم أكن مهيأة لاستقبالك.

كنت أقف في الشرفة، أطال عوجه القمر، وأبثه وجع قلبي من الزمن القبيح حين خطرت على بالي وبدا لي أنّ فيك شيئا من القمر، نعم، في كمنه، في علوّه وترفّعه، في سكونه وغموضه، في لا مبالاته بالظلام، لأنّه لا يعرف سوى أن يكون منبعا للنور.

رأيت ذكراك، يمامة بيضاء وديعة ناعمة، تحطّ على شبّاك روحي، بكل هدوء، وسمعتني أناجيك وقلبي يسألني عنك.

ترى ماذا فعلت بها لأيام؟

جميل الذي كان بيننا يا صديقي... ولكن، هل كان حبّا؟ مشروع حب لم يكتمل؟ تقاربا روحيا؟ صداقة أدبية؟ مراهقة من نوعٍ فريد؟ لا أدري.

سخيف هو السؤال... أليس كذلك؟سخيف لك ونهب لا جدوى، وأيضا لأننا دائما نكدّر صفو الذكرى بغيم الأسئلة.. ونخمش وجه الذكرى بمخلب / هل؟

لا أفهم لماذا نصرّ على خنق مشاعرنا بحبل التعريفات والتفسيرات؟

لماذا نصرّ على التسمية؟

لا يفقد الأشياء جمالها، يا صديقي، مثل الرغبة في حشرها داخل مسمىً ما.

مهما يكن الذي كان بيننا فقد كان استثنائيا، ممنوعا من التكرار ربما لأنّه كان إنسانيا في المقام الأوّل أول أننا كما كنت تقول ".. يحب أحدنا الآخر بالفكر رغم أنّ الحب من وظيفة القلوب".

هل تصدّق أنك الآن معي؟ وأنني أراك بكل وضوح رغم السنين والمسافات؟ أرى قامتك الفارعة وجسدك النحيل، عينيك السوداوين العميقتين، شعرك الأسود الكثيف، وجهك الأسمر وابتسامتك المعبّأة بالمعاني والتي كانت دليلا على مزاجك... كنت أدرك من شعاعها ما إذا كنت تضمر الحزن أو الفرح أو العتاب أو الشوق أو تخفي رغبة ملحّة في البكاء.

في لقائنا ما قبل الأخير.. بعد فترة من البعاد... مددت يدك إليّ بدفتر وبحزمة رسائل.. لم أفهم.

قلت لي...

"هذه رسائلك إليّ... هي كنزي... إنها عندي أغلى مما كتب تميّل جبران أو سيمو نديبوفوار لسارتر، لذلك أخشى أن تضيع مني في زحمة الأيام.. أرجوك دوّنها بخط يدك على هذا الدفتر... وسامحيني.. ربما ستؤلمك بعض التفاصيل، لكن هي فرصة لكي تعرفي كم كنا رائعين".

ونقلت كل رسائلي إليك بخط يدي على صفحات الدفتر.

وكتبتلك... في ذيل الصفحة الأخيرة:

آخر ما يمكن أن أقوله.

يا رفيقي كل شيء بقضاء

لا تقل شئنا فإنّا لله شاء.

في لقائنا الأخير... مددتُ إليك يدي بالدفتر.. كنت أنظر في عينيك، في لمعان الدمع فيهما، وكنت تنظر في لمعة الخاتم بإصبعي.

ثم غصصت بالعبارة.

"إذا... اتّخذت قرارك؟ المهم أنت كوني سعيدة وأنت كتبي دائما ولا تنسي... حياتك غالية جدا عندي ولو في يوم أردت بيعها سوف أشتريها بكل ما أملك... وما لا أملك".

وافترقنا على يأس... اللقاء.

سأهبك غزالة (رواية الروائي الجزائري الكبير مالك حداد) صاحب المقولة الشهيرة "إنّ الفرنسية لمنفاي".

obeikan.com

قصاصات حبٍّ مستحيل!

-1

12 **ابريل...**

(....) لم أجد سوى هذا الكتاب الصغير كهمزة وصل وحيدة لأربط بها بين عالمينا المبعدين. تأثّرت برسالتكِ حين أعدتِ لي كتاب راينر ماريا ريلكه RainerMaria Rilke "رسائل إلى شاعر شاب"، لكني أخشى أن المؤلّف لم يعمل سوى على حفر وحدتك وتعميقها أكثر.

يبدو لي أسهل لو نوطن النفس على حب حياتنا عوضَ البحث عن حياة أخرى، بطريقة أخرى.

أشعر بما تشعرين لكني أرفض أن أستمتع بما ينتهي بسرعة.. ولا يستمر في الزمان.

خضوعك يستفزّني لأنه ليس اختيارا.

لا نعرف بعض إلا قليلا لكني، حين أرحل من هنا، في شهر جويلية، سأحمل معي الإحساس بأنّي مررت قريبا جدا جدا من... لا أدري ماذا أقول؟

في سبتمبر.. أيام الدخول المدرسي.. كنت ترتدين فستانا أحمرَ جميلا.. أما زلت ترتدينه؟

اسمحي لي أن أتوقف هنا. مازال عندي ما أقول.. الكثير.

شكرا على كعك الربيع ..لكن هذا الربيع باردّ جدا.

-2

10 جانفي ..

(...) أنا ما نسيتك. رسالتك أحيت في نفسي مشاعر هرّبتها بعيدا بسبب الزمن والمسافة ورغبتي في أن لا أحاول المستحيل.. وددت التحدّث إليك ذلك اليوم لكنّك قلت لي بقسوة "هذا ليس الزمان ولا المكان المناسب" – كان ذلك في ساحة الثانوية –

زمان ومكان لم يأتيا أبدا.

وصلتني رسالتك بعد يوم من عودتي من الجزائر..

ذهبت لقضاء رأس السنة في "تمنراست" أين تسكّعتُ طويلا ونمت في العراء، في جبال "الهقار".

كنت أفكّر فيك.. في نفس اللحظة كنتِ تكتبين لي.

من اليوم لا تكتبي لـ"أستاذ-ك- العزيز". أنا أدعى "إيف ماري".

هذه السنة، أنا أدرّس في شمال فرنسا.. حوالي 30 كلم من بلجيكا.

لقد اشتريت مركباً كبيرا..

كبيرا جدا لأكون فيه وحدي.

لن أعود إلى مدينتك.

لم أرحل بسببك، ولكن من أجلك كنت سأبقى..

كانت تكفي كلمة واحدة منك لكي أبقى.

أنتظرك. أخبريني ماذا أنا بالنسبة لك. أنا لا أرى بوضوح داخل مشاعري التي خنقتها لمدة سنتين. أتذكّر صبية بفستان أحمر في أول يوم من السنة الدراسية. لها فقط كنت أتحدّث وألقي دروسي. الآخرون لم ينتبهوا وكنت لا أعيرهم اهتماما لذلك تعبت كثيرا مع ذلك الصف.

هل ستأتين إلى فرنسا يوما؟ أخبرتني أنّ لك أقارب هنا؟

هذه بداية جانفي. أتمنى لك عاما سعيدا وأدعو أن تنجحي في الثانوية العامة.

في الجامعة ستكونين حرّة.. ربما.. قليلا.

لا أستطيع أن أنهي رسالتي دون أن أقول حماقة أفكّر فيها.. أحرزي؟

قبلاتي.

3 –

29 جوان...

(....) تعلمين أن لا شيء تغيّر بالنسبة لي.. وأني أفهمك أكثر مما تتصوّرين.. ولكني لا أستطيع أن أتقبّل كيف ترضين بسلبية الحياة في محيطك.. حيث لا تكونين حرّة.. أبدا.

عل كل حال، في السنة المقبلة، في الجامعة.. ربما تراودك فكرة أن تعيشي الحياة.. حقا.

دائما سعيد أني أتلقّى رسائلك.. وسأكون أسعد لو ألتقي بك.

أحبّك.. ولا أدري كم من الوقت سوف أنتظرك..

أنا أرغب في أن أعيش بسرعة.

قبلاتي.

– 4

16 جانفي...

ليتك معي هذا المساء.. بقربي.. ليتنا نستطيع أن نتحدث.. وجها لوجه..

(....) كم أود لو أتأكّد من أني لن أخذلك. لست بطلا ولا أنا شخصية رواية.. أنا موجود بكل مساوئي.. وأخطائي.. أرفض أن تحبّي فيّ شخصا خياليا يتحلّى بكل الصفات الإيجابية لأنّه بعيد، لأنّ ثقافته مختلفة، أو لأنّ الوصول إليه مستحيل.

.... لو كنتِ هنا لكان الأمر سهلا وبسيطا.. كنا استطعنا أن نعيش مع بعضنا البعض، أن نحب بعضنا البعض دون أن يجد أحد ما يتقوّل به..

حضارتانا مختلفتان.. جدا.. وعائلتك لن تكتفي برفض علاقتنا بل ستقف في وجه زواجنا أيضا.

علينا أن نعرف إلى أين نحن ذاهبان. أنا لن أخسر شيئا لكن أنت، كوني واعية بأهمية القرار الذي سوف تتخذينه..

إنّه خيار مهم... وهذا الخيار سيفرّقك إلى الأبد عن عائلتك ووطنك.

صغيرتي..

....اعذري نبرة رسالتي اليوم.. أردت فقط أن أعرف إذا كنا على استعداد لأن ننتقل من الحلم إلى الحقيقة وعلى استعداد لأن نأخذ بالأسباب لتحقيق حلمنا.. طرق عديدة ستساعدنا: سفر من أجل الدراسة، زيارة لقريب في فرنسا، تحضير الملف من أجل زواجنا.. فقط الزواج يضمن لك المكوث في فرنسا.. لابد أن تنجحي في الثانوية العامة.. الشهادة هي الوسيلة الوحيدة لتدخلي الجامعة في فرنسا.. نقدّم هنا دراسات جادة بالفرنسية والعربية..

أنتظر ردّك..

-5

30 أوت....

(...) وجدت رسالتك.. وأنا عائد من العطلة، تخبريني فيها بنجاحك في الثانوية العامة.. سعيد جدا..

لم يفاجئني الخبر.. فلا أحد في ذلك الفصل كان يستحق النجاح حقا سواك..

إذن.. انتهت العطلة بالنسبة لي.. وقريبا لك.. أنا قضيتها بين الموسيقى والبحر. ثلاثة أسابع درست فيها موسيقى

القرن السابع والثامن عشر، ثم خرجات في البحر، بالشراع، على سواحل شمال فرنسا وبلجيكا.

كما اتفق، سوف أعود إلى الجزائر، لمدة سنتين، للتدريس في "تيارت" بالجنوب.

جمعتُ أمتعتي وأنا الآن في تولوز أزور والدتي قبل أن أغادر إلى مارسيليا في 12 سبتمبر.

أفكّر فيك دائما.. "تيارت" بعيدة جدا عن مدينتك.

أنت تقطنين بلادا معقّدة حقا!

كيف سألتقيك دون أن أسبّب لك مشاكل.. لا أستطيع حتى أن أدعوك إلى زيارتي.. مع أني سأكون سعيدا جدا لو استضفتك في فرنسا.

لا تنسي أن ترتّبي لاستخراج جواز السفر.. صديقتك ابنة رئيس البلدية يمكن أن تساعدك.. حين تصلين سن الثامنة عشر لن تحتاجي لتصريح أبوي.

لا تخبري أحدا بمشروعنا.

اكتبي لي دائما.

قبلاتي.

-6

10 ابريل..

... لا أفهم سر هذا الصمت.. كل ما قلته من شهور أستطيع أن أعيده. لم أتغيّر.

متى ستردّين عليّ؟

رسالتك الأخيرة قلبت كياني..

هل كان ذلك من أجل متعة الكتابة.. فقط؟

سأظل أنتظرك.

أحبك.

obeikan.com

اعتقني من جنّتك!

على سطح المقلاة تتشكّل فقاعات كثيرة، شفّافة لامعة. تتداخل. تتسارع. تنطفئ. تولد من جديد.

شنشنة الزيت ليست مزعجة حقا، فيها من الموسيقي، أو من إيقاع المطر.

المنظر يحيلها إلى بقعة ما داخل كرة رأسها الصغير!

أصوات خارجية تبعثر تركيزها، لكن صوتا أعلى يحوم حولها، ملحاحا، مشاكسا ." هل سأجعلها ترضخ وتبقى أم أجعلها تغادر في ليلة ظلماءَ ممطرة؟ لمَ الظلمة والمطر؟ حسنا، لكي يناسب الجو الخارجي إحساس البطلة الداخلي. جميل. قد أترك النهاية مفتوحة، أو أرّش بعض الغموض فوق السطور. بعض الغموض محبّب، يثير الشغب في أزقّة الفكر".

تقلّب حياة محتوى المقلاة بحركات آلية، بطيئة. تحاول التركيز حتى لا تندلق عليها. يصبح الطبخ وسيلة تعذيب ومعاناة حقيقية حين تكون بانتظارك طبخة أخرى، أشهى وألذّ!

"المطبخ مملكة المرأة! تهزّ رأسها. تبتسم بسخرية.

"يسعدني التنازل عن عرشي، طواعية، مقابل ورقة وقلم!"

مسلوبة الفكر، شاردة الذهن، تود الانتهاء بسرعة لكي تدخل عالمها، عشقها، لعبتها الساحرة فوق الورق. تنحت من الأبجدية شخوصا، تنفخ فيهم من المخيّلة ثم تلقي بهم في مسرح اللاوجود.

تراقبهم من بعيد وتصفّق!

لم تقرر بعد بشأن الرواية، لا بد أن تؤثّثها بحكاية حبّ كبير. متيقّنة أنّ العالم مازال يدور حول الـ (هُوَ) والـ (هي)، وقصص العشق مازالت تغري بالقراءة رغم تكاثر الصدأ على جنبات المشاعر، وتمرّغ الحب فوق أرصفة الكذب.

صعب أن تعثر على الفكرة وسط كل هذه الفوضى... رائحة الطبخ، آلام الطمث، رنين الهاتف، بكاء الرضيع، الجارة، صراخ الباعة في الخارج و... طلباته هو تحسده أحيانا لأنّه رجل عادي، لا يحمل في جيناته جنون الكلمة.

- سأخرج. هل تريدين شيئا؟

- أريد أن أكتب!

- آه ..نعم.. الحفاّضات للرضيع، شراب ضد السعال لعامر، و... و..!

قبل أن أنسى، أترك لخديجة ثمن الدروس الخصوصية... اليوم آخر الشهر.

النسيان... آفة تزامن ميلادها في حياتها مع بداية نزف قلمها! صارت تنسى كثيرا... الأكل على النار، الاتصال بوالديها، مواعيد اجتماعات الأولياء في المدرسة، زيارات النفاق الاجتماعي. تنسى ذاتها أيضا حين يتخبّطها شيطان الكتابة فتنشغل بحرث الورق، وترتيب قطع اللعبة، وإغراق البياض في سيول من الخيال.

- أريد أن أكتب.

- أريد قهوة... ساخنة جدا.

القهوة....، أيّ سر يجعلك معشوقة وأنتِ سوداء ومرّة مثل الظلم؟

تقرّر تجاهل الهاتف لكنه يرن بإصرار يتصلون بها من العاصمة. دعوة لحضور ندوة أدبية حول الكتابة النسوية.

- بعد غد سأكون معكم بإذن الله... شكرا. إلى اللقاء.

- بعد غد؟ غير ممكن. موعد تلقيح ابنك الرضيع. بعد بعد غد؟ غير ممكن... هل نسيت.. زوجك مسافر في رحلة عمل لا تدرين كم ستدوم؟

- بعد أسبوع؟ بعد شهر؟ سنة؟ ربما سيكون ممكنا.

- آخر ندوة شاركت فيها كانت منذ شهور. الحوارات ماثلة في ذاكرتها، ولقاؤها بأديبات جميلات ولجن مثلها دنيا الكتابة:

- زوجي غيور جدا... كلما جلست إلى طاولتي وأوراقي يحسّسني تعبير وجهه بأنني أواعد عشيقا!

- أنا كل نص أسرده يعتبرونه سيرة حياتي...! حتى أنّني تراجعت في قصتي الأخيرة، ولم أجعل البطلة تقتل الرجل مخافة أن أُسجن بتهمة القتل العمدي بالسلاح الأزرق!

- أنا قرأت أنّ "مونيكا علي" أوكلت طفلها إلى رعاية خاصة لمدة شهور كي تتفرّغ لكتابة روايتها "شارع بريك لين".

- هل قالت لمن أوكلت زوجها؟!

- بصراحة زوجي أنا متفهّم جدا، لكن سفري إلى أبعد من هذه المدينة ما يزال في قائمة المحظورات!

- أما أنا فممنوعة من السفر. وقد احتاج الأمر إلى ثورة لأكون هنا معكن!

- يمنعونك من السفر ويسمحون لك بالكتابة؟!

- لا يمكن أن يمنعوني من الكتابة لأنهم أصلا... لا يقرأون!

طرقٌ على باب الشقة. تفتح حياة. تدخل جارتها نعيمة، تربطها بها علاقة طيّبة. امرأة شابة ومثقفة، اضطرت للمكوث في البيت والاهتمام بأطفالها. زوجها يحضّر رسالة دكتوراه بينما هي دسّت شهادتها وذكاءها وأحلامها داخل صندوق حديدي، ركنته جانبا واكتفت بدور الكومبارس!

- الله.... حياة... بيتك جميل، ما شاء الله... جنّة! تعلّم العالم أن ينظر الى مظاهر الأشياء.. ويحكم عليها، لماذا إذن لا تعيش صديقتك ... جنتك! فلعل نارها تكون أرحم عليك، اغفري لها.. إنها لا تعلم. اللّهم لا حسد.

- تشكرها حياة. تعزمها على قهوة وبعض الفاكهة. موز وتفاح أحمر تروي لها نعيمة حكايتها مع التفاح وكيف أنّه أصبح في عرف زوجها دعوة غير صريحة لممارسة بند الاتفاقية!

- بعض الإيحاءات اعتدت عليها، لمسة، ابتسامة، نظرة مميّزة تطل من عينيه حين يتصادف وتلتقي أعيننا، وحين يشتري التفاح أتيقّن أنّ الرغبة حاضرة!

وتعلّق حياة ضاحكة:

- لعلّ آدم لم يتخلّص من اعتقاده الساذج بأنّ حواء أخرجته من النعيم. يغويها هنا بالتفاحة الحلال لأنّها أغوته هناك بالتفاحة المحرّمة!

تنصرف الجارة بعد لحظات من الثرثرة الحميمة.

تحس حياة بالضيق فتقرّر الخروج .الأطفال عند والدتها اليوم. تلبس تنظر في المرآة... ظلا من أحمر الشفاه. رشة عطر تتفقّد صنّاع الفرح داخل حقيبة يدها.... دفتر وقلم.

تستقلّ سيّارة أجرة.

- شاطئ السّلام من فضلك.

تنتبذ مكانا قصيا عند نهاية الشاطئ. تجلس في حضرة أفكارها. تخلع العالم. تتخفّف من الأصوات. تستغرق في السكون. لا تلقي بالا لعيون دغدغها الفضول، بعضها تغازل، وبعضها ترقبها بطرف خفيّ.

بدا البحر هادئا جدا وقريبا منها... جدا، على مرمى عناق.

السماء نفضت عن كتفيها بياض الغيوم وتوشّحت بلون البحر.

رائحة الموج منعشة. تتغلغل في مسامات روحها. توقظ في نفسها شهوة البحّار للمغامرة وتوق الأشرعة للريح.

لو أنّ للحرية رائحة لكانت رائحة الموج... دون شك!

تخرج الهاتف الخلوي من حقيبتها. تضغط على الحروف فتتشكّل الجملة... "زوجي العزيز من فضلك اعتقني من جنّتك"!

وتظلّ هناك، كفّها تحتضن الهاتف، ونظرها ساهم في الأفق، حيث بعض النوارس البيض تمارس الحب والحرية.

oberikan.com

زوبعة في قلبٍ أخضر..

في كل ليلة، تفترسها الهواجس ويتكرّر شريط صور تلك الليلة المشئومة. تحاول الهروب منها لكن المنظر يطوّقها ببشاعته.

تقضي الليل مكوّمة فوق السرير، ممزّقة بين مشاعر الحب والكراهة،الكفر والإيمان. ترقب أختها الصغرى غارقة في النوم .تحسدها على الغفلة وخلوّ البال. أحيانا ينهمر دمعها حين تفكر في والدها يوم كان هنا، والبيت مملكة للحب والفرح، وكانت هي الأميرة.

لم تقصّر أمها في شيء. تبنّت يتمهم وغمرتهم بفيض من الحنان ولكن، الآن تتمنى لو تدغدغ خديها قبلات أبيها، لو يحتضنها وتبكي على صدر.

أصبحت "نسرين" تكره الليل. يرعبها مجيئه. تتمنى لو أنه لا يأت أبدا. تنتابها حالة من الهلع، تلازمها مذ ضرب زلزال المشهد أعماق ذاتها، فاهتزّت أعوامها الخمسة عشر وامتدّت الشروخ، لتفتّت صرح الثقة والأمان الذي كانت تقف عليه.

من يومها لم تعد تنام. كم تتمنى لو تضع رأسها على الوسادة فلا تصحو أبدا،كم تتمنى لو أنّ النهار بلا غروب. النهار أرحم. يحرّرها من شرنقة التفكير، وما بين المدرسة والزملاء والكتب تحاول أن تنسى أو تتناسى، رغم أنّ ما طرأ عليها من تغيير أصبح يثير الانتباه.

اليوم فقط نهرتها أستاذة الرياضيات على مرأى ومسمع من الجميع:

- ما هذا الشرود نسرين؟ وما بال نتائجك تتقهقر في المدة الأخيرة؟

وتضع التي تجلس بجوارها كفها على فمها، لتكتم ضحكة ساخرة وتستدير إلى زميلتها في الخلف:

- أترين. حتى الأستاذة انتبهت لذلك. ألم أقل لك أن في الأمر سرّ؟!!

تجيبها الأخرى بنبرة استفزازية:

- إنّه الحب يا أختي، نسرين غارقة حتى أذنيها .لا تريد أن تحكي لنا ما حصل بينها وبينه.

تلوذ نسرين بالصمت. وجهها يغلّفه الانكسار وعيناها انطفأ فيهما بريق الصبا ليترك غبشا من كآبة.

تدقّق في الكتاب المفتوح أمامها ولا تراه. لم تهتم لما سمعته، كأنّ التي يتحدّثون عنها فتاة غيرها، أما في صدرها فتجيش مشاعر الغضب والحنق، وبقايا طفولةٍ تستغيث، تصرخ، تستنجد.. لماذا يا أمي؟ لمَ فعلتِ بي ذلك؟

في نهاية الحصة نادتها الأستاذة:

- نسرين، ما بك؟ اعتبريني مثل والدتك. هل لديك مشكلة؟

لا. أرجوك. لا أريدك أن تكوني مثل والدتي.

تختلق نسرين بضع كذبات عن خوفها من الامتحانات ومرض أمّها وصداع يلازمها مؤخرا...

- حسنا. لو أردت الحديث سوف أستمع لك.

مسامير تدق رأسها دون هوادة. تأكل الحيرة أطراف فكرها العاجز. أي حديث أستاذتي؟ وأي لغة سوف أصف بها صدمتي في أحب الناس؟ من يحمل عني عبء سري؟ من يريحني؟ من يشرح لي ما يحدث؟

مرّات كثيرة صوّر لها خيالها ما سيكون لو يتجاوز السر حدود صدرها، سيتفرّع الخبر وتصبح أمها مادة للثرثرة.

سوف تلوكها ألسنة المدينة دون رحمة. ليت الأرق لم يوقظها من نومها تلك الليلة. ليتها لم تفتح باب غرفتها، وليتها لم تسمع صرير الباب الخارجي الذي أثار فضولها وخوفها فقامت متجهة إلى البهو.

لكنها لم تستطع أن تخطو خطوة أخرى.

سمّرها المنظر على عتبة الباب. أغمضت عينيها. أعادت فتحهما أكثر من مرّة. لم تكن تحلم. أمها بثياب النوم تفتح الباب. ويدخل جارهم. الرجل الطيب المحترم. وقف إلى جانبهم بعد وفاة والدها .ساعدهم في كل شيء. كم كانت تشعر بالامتنان نحوه! كم كانت تراه عظيما! والآن تراه بعيون فغرتها الصدمة، يطوّق أمها بذراعيه قبل أن يتسلّلا معا على أطراف الأصابع، كلصين، إلى غرفة النوم.

مشهد تكرّر أمام عينيها أكثر من مرّة، ليتحوّل بعدها إلى قنبلة موقوتة استقرّت في صدرها. امتزجت دقاتها بدقات قلبها. أصبحت تخشى انفجارها في أية لحظة .في المرة الوحيدة التي تشجّعت فيها وقرّرت المواجهة، تراجعت الكلمات واحتبست في حلقها بمجرد أن التقت

نظرتها بنظرة أمّها.. كبيرة أنتِ يا أمي. كيف أجرؤ؟ ولكن، كيف تجرئين؟

ما زلت أحبك وسأظل أحبك... لكن من يعيدك لي نقيّة، بيضاء كما كنتِ؟ ومن يعيدني إليك طفلة تتعلّق بأطراف ثوبك، ترى فيك عالما من الكمال والعظمة.

قضت "نسرين" شطر الليل منكمشة فوق سريرها. تحرّك جسدها الصغير في كل الاتجاهات قبل أن تغفو مع الهزيع الأخير من الليل. يريحها النوم من عذاب الأرق لتتلقّفها قبضة الكوابيس.

في حدود الساعة العاشرة أفاقت مرهقة. فتحت النافذة ونظرت إلى الخارج. رأت سيارته قرب العمارة... يركنها في المكان نفسه كل جمعة ليتجه للصلاة.. نعم. تديّنه كان محط إكبار من الجميع. تمنّت لو تستطيع نسف السيارة بإشارة من يدها. تمنّت لو تراه داخلها وترى النيران تلتهم كل جزء فيها.. ربما ساعتها تستطيع أن تنام، ربما تهدأ الزوبعة العارمة في قلبها. وفي لحظة فتحت محفظتها وأخرجت ورقة وقلما، وبيد مرتعشة

كتبت "ابتعد عن أمي.. لو فيك ذرّة من الإيمان والإنسانية أرجوك أن تبتعد عن أمي وعنا جميعا".

طوت الورقة. دسّتها في ثيابها. نزلت السلالم مسرعة. كان الشارع خالٍ تماما. اتجهت إلى السيارة.

رفعت ماسح الزجاج ووضعت الورقة هناك وعادت أدراجها.

obeikan.com

جذور قلبها...

- أصمتي يا ابنتي.. دعي البئر راكدة!

- لن أصمت أمي! المياه الراكدة تتعفن وتنمو فوقها الطحالب الضارة. سوف أرمي البئر بحجر، بحجرين أو عشرة... لننتهِ من هذا. اليوم.. الآن.. ما عدت أحتمل!

أكبر بناتك، يحرقها الغضب والألم من أجلك، هي لا تصدّق أنه تجرأ على إيلامك، وجعل الدمع يفيض من عينيك الحبيبتين.. ولا تدري من شحن قلبه بكل هذا السمّ الذي أصبح يسيل من نظرته وكلامه.. الآن فهمت إحساسك يا يوسف يا صدّيق! رهيب ظلم ذوي القربى، أشدّ إيلاما من الألم نفسه.

- يريد نصيبه من البيت. العصفور الصغير قوي ريشه يا ابنتي. يريد مغادرة العش.

- ما سمعت عن عصفور أدمى بمنقاره كل من في العش قبل أن يغادر. ليأخذ نصيبه أمي، ليأخذ أكثر، وليترك لنا حمائم السلام تتهادى فوق سور الحديقة كما كانت دوما.

ابنك، آخر العنقود، الأمل المنتظر، فرحة العمر وهدية السماء بعد سنين من الانتظار والخيبة. تذكرين كيف أنه مع كل حمل يعشّش في رحمك، كان الأمل يكبر، يتكوّر، يستدير، ينمو كما الجنين في أحشائك، يكتمل ثم يتهاوى في آخر الشوط، مقطّعا الحبل السرّي الذي يربطه بالفرح.

بنت وبنت ورابعة وخامسة، ويخبو بريق عينيك وتلمع في أحداقك دموع اليأس، لكن الحب في صدرك لا يغيض... لا يتقلّص قيد أنملة. ترضين بالمقسوم، لا تتذمّرين... تغدقين على البنات من حنانك، تلفّهن في وشاح عطفك.. تفخرين بهن "بناتي هن كل عمري، هن أخواتي وصديقاتي..."

النسوة في العائلة يتغامزن "تلك التي تلد الإناث.." تبتسمين حين يصلك ذلك... تنكّتين "أنا لا أنجب سوى البنات فلينجبهو الذكور!".

لكنك كنت تتمزّقين شوقا، تحلمين بالذّكر، الولد الذي سيخلّد لقب العائلة ويجتاز بك وبأبيه بحار المحن والأحزان، الذي سوف تستخلصينه لنفسك وتدّخرينه لضربات الزمان.

ما زرتِ وليّا يوما ولم تمارسي شعوذة، لم تحضري "وعدة" أو "زردة" كما كانت النسوة يفعلن.. ولكنك كنت تتمنين الولد.. من كل قلبك.

وينبت في ظلمة أحشائك حملٌ سادس. وينمو الخوف، بشع وقاتل، ثعبان ينفث سمّه في روحك، لكن الأمل يتوزّع في أرجاء قلبك كما نور الفجر.

أتراه سيأتي؟

يبدأ المخاض، تتوجّعين، تبكين في صمت، تصلّين في قلبك، تتضرّعين.

تبتسم القابلة "ولد، يا أم البنات ولد... أخيرا! مبروك".

تقرع أجراس البشائر، وفي أرجاء البيت الكبير تهطل السعادة. ينخرط الجميع في فرح هستيري.. جاء الابن، جاء الأخ والحبيب يا أمي، أتى من سنشدّ به أزرنا ونشركه في أمرنا.. سنربيه معا، نحمله وندل له ونحبّه، ونتنازل له عن نصيبنا من الكعك والحلوى والحب.

يكبر الأخ وتكبر الفرحة. ما تزال الجدران تحتفظ بكل الذكريات، تكتنز صدى الضحكات، لحظات اللعب والمرح والشقاوة قبل أن تمر الأيام ويشتد عود الابن، وحيد

العائلة، فينقلب حاله. يختفي تماما ذلك الصبي الجميل المرح، بشعره الأشقر الطويل وعينيه الضاحكتين وشخصيته المحبوبة، ليقف مكانه شخص آخر ,مختلف تماما، جاف النظرة، حاد الطبع، قاس القلب، كلماته جمر وحواره صياح وكلامه صراخ.

لا تذكرين بالضبط متى بدأت كراهيته لك ولأخواته تظهر وتتكاثر كالفطر السام، ولا أحد يفهم لماذا.. لم يكن هناك من سبب واضح.

وتمر الأيام وتتمدّد المسافة أكثر بينه وبينك.

ويقرّر.. بعد أشهر على موت أبيه.. "أريد بيع البيت.. أريد نصيبي من كل ما ترك أبي.." وماذا ترك الأب؟.. هل ستتقاسمون مصحفه الشريف أم عدّة تصليح ساعات اليد التي كان يكسب منها قوت العائلة، أم شجرة التين فيكون له الأغصان ولكنّ الجذور؟ ماذا ترك الأب غير غصّة في قلبك يوم همس لك بصوت ضعيف واهن وهو في طوافه الأخير "اهتمي بنفسك".

كان خائفا عليك.. أدرك أن الابن الوحيد ليس على قدر المسؤولية، ما كان كذلك في حياته فهل سيكون في موته؟

تحايلت عليك البنات، كل واحدة ترجّتك أن تتركي له البيت وتمضي معها، ستعيشين معنا ملكة مبجّلة، سنفسح لك داخل أحداقنا يا أمي لو ضاق المكان، نطعمك من قلوبنا لو شحّ الطعام ونرويك من دمنا ودموعنا.. تطرقين، تتأمّلين الحيطان والنوافذ، تمسحين بعينيك على شجرة التين العتيقة، تحدّقين في السماء، "لن أترك هذا البيت إلا جثة هامدة.. هنا عمري، حياتي، بأحزانها وأفراحها، هنا تاريخي وذكريات المرحوم.. لن تفهمن".

نعم... لن يفهمن، كيف سيفهمن أن الشجرة وأنت واحد، وأن ابتعادك عنها انتحار وموت محتوم. كانت شتلة صغيرة، هشّة يوم أحضرها المرحوم في إحدى أماسي الربيع وكنت حاملا بالبنت الكبرى. زرعها في قلب الحديقة فكأنما زرع معها أوردة قلبك. كبرتما معا، سقيتها من معين الحب والسخاء، وتعلّمتِ منها كيف يكون الصبر والعطاء ومواجهة الرياح، لم تهزمكما الأيام ولا الشتاءات التي عصفت بالبيت.

والآن، ولكي تنسلخي عنها، عليك طرحها من الذاكرة، عليك لملمة عمرك المهروق حول تربة جذعها وقطف ابتساماتك ودموعك من فوق أغصانها.

- لو بناتي حقا، حبيباتي، لا تحقدن عليه، اطلبن له الهداية، ليس ذلك على الله بعزيز.

ترفع الحبيبة كفها بالدعاء، وينهمر دمعها، ترفع البنات أكفّهن بالدعاء مثلها.

وفي قلب الصمت يُسمع تمزّقٌ للدّم في الشرايين، وتأوّهات رحم تحتضر.

ليس ماءً ما يجري في العروق، ولكن.. كأنّ معاني الحب والأخوّة تهوي في كهفٍ مظلمٍ سحيق.

obeikan.com

عشر درجات على سلّم الذّهول!

تشير بإبهامها إلى عينيها فنبتسم.

نفهم ما تعنيه قبل أن تنطق العبارة "أنتما عيناي... أنتِ اليسرى، وأنتِ اليمنى".

ما تزال صورتها البهيّة تؤثث ذاكرتي، حين تدنو منا لحظاتٍ فقط قبل أن يسلمنا النوم إلى حضن الأحلام... تزرع وجهي ثم وجه زينب بقبلاتها المشبعة بالحنان.

يومها كان للدنيا طعم السكر وحياتي ضحكة كبيرة، ساحرة، لها مزاج الشمس حين تستفرد بكبد السماء، وأمي ملاك فوق الأرض، قدّيسة، أميرة، حبّ العمر الأوّل والوحيد.

كنتُ مرحة رغم خجلي وانطوائي، ولي جناحان صغيران من حرير، يحلّقان بي عاليا حين يتزوّد يومي من عينيها أو يتلقّف قلبي شعاع ابتسامتها.

ترى كم سأحتاج من الوقت لكي أتقبّل سقوطي الرهيب بعدما رفعتها وارتفعت بها إلى تخوم النجوم؟

أعرف أنّه كلما كان الارتفاع أعلى كان السقوط أشدّ وقعة، ولكن، أليس من المفروض أنّ الحقيقة تصحّح خطواتنا؟ تثبّتنا أكثر؟ أليست الحقيقة شكلا من أشكال القوّة والحرية، الجوهر الذي قد نقضي العمر مهووسين بالوصول إليه والفوز به؟

لا أدري. هراء كل النظريات التي قرأت. لم تعلّمني الكتب شيئا في النهاية، أبدا، لا شيء ولا حتى القدرة على أن أستبين أيهما أرحم، حرير الوهم أم شوك الحقيقة؟ ثبات الشك أم اهتزاز اليقين؟

مؤلمٌ... قاتلٌ هذا الإحساس باليتم. رئتي يغلّفها الجليد، صدري يعتصره الألم. عقلي تتقاذف به الحيرة والذّهول.

ضائعة أنا وخائفة وهشّة، مثل نبتة في العراء فاجأها الإعصار.

محاصرة داخل مربّع الشتات، وحياتي انقلبت مائة وثمانين درجة. لا أثر لجناحيّ الجميلين، والضباب، رماديٌّ كثيفٌ يحجب عني عينها و.... العالم.

ليتني بقيت عمياء ولم أكتشف الأمر... أومن بكل ما تقوله وتفعله. صعب أن تفقد فجأة إيمانك بما عشت

عمرك كله واثقا منه، مسنودا به. ترى، ماذا هناك أيضا؟ أيّة أمور أخرى سوف تنكشف لي؟ إذا كان الشك يؤدي إلى الحقيقة فإنّ الحقيقة تؤدي إلى حقائق، ربما أقل فظاعة، ولكن مرّة وبشعة.

الحقيقة لا تأتي مكتملة دائما، لا تكون سوى الجزء الناتئ من جبل الجليد، الهزّة التي تصاحبها ارتدادات.

ما يؤلمني حقا الآن هو عجزي عن فهم شعوري نحوها بعد أن رأيتها أمامي عارية تماما، بلا مساحيق.

أمازلت أحبها؟ هل أنا أكرهها؟ هل يوجد شعور وسط بين الحب والبغض؟

ليتني أستطيع كرهها. لا أقدر، حتى لو أردت ذلك. لا أقدر.

حالما انقشع الوهم، بدت لي كل الصور جليّة، واضحة. ها هي تنفرط من حبل الزيف كحبات العقد، واحدة تلو الأخرى... إنفاقها ببذخ غير معقول على الملابس الأنيقة الغالية الثمن، المجوهرات الثمينة التي تقتنيها متعلّلة في كل مرّة بكذبة ما... منحة قبضتها من المستشفى، سلفة حصلت عليها باتفاق مع مجموعة من الزميلات الممرضات، تعويض جديد من الدولة على خلفية مقتل أبي، ثم حرصها

الغريب على ألاّ نزورها أبدا في المستشفى، أبدا، مهما حدث... وتلك المكالمات الهاتفية المريبة. لازلت أذكر الليلة التي استيقظت فيها على صوتها وهي تصرخ في الهاتف وتهدّد. "إلا بناتي! إياك أن تقترب من بناتي...."!

في الصباح سألتها عن أمر تلك المكالمة فاستغربت وأنكرت، "عزيزتي، كنت تهذين بسبب الحمى". صحيح كنت مريضة ليلتها ولكني لم أكن أهذي، إنّما كذّبت نفسي وصدّقتها. أمي لا تكذب. أبدا. أمي دائما على حق. حتى الشكوك حين يحدث وتطوف برأسي، ويغشى طنينها عقلي، مزلزلا وعاصفا، كانت تبعثرها صيحة واحدة من عمق باطني... ما هذا؟ كيف أجرؤ؟ مستحيل... إلا أمي!

كتمت الأمر عن زينب. خفت عليها من الصدمة. "أختك هي صديقتك الوحيدة. كونا معا دائما، متلاحمتين وإذا كان لابد لإحداكما أن تموت من أجل الأخرى فلتمتْ". لم أنس هذه العبارة أبدا.

لقّنتنها أمي منذ صغري كما تُلقّن الشهادة.

أكيد... كنت سأموت من أجل زينب ولكن أمي قتلتني!

زينب تصغرني بأربع سنوات وهي صديقتي الوحيدة. في الحقيقة، لم أفلح أبدا في نسج صداقة مع أية فتاة أو شاب. في طفولتي الأولى وحتى سن المراهقة، كنت أعزو ذلك إلى شخصيتي الانطوائية وأيضا ظروف أبي المهنية. كان دركيّا، لا نكاد نستقر في مكان ونألفه حتى يأتي القرار بنقله إلى مكان آخر. وأضطر في كل مرّة إلى الرحيل. أترك مدرستي وذكرياتي وبعضا من روحي. كم كان ذلك محرجا وصعبا!

من حوالي سنتين استقر بنا المقام في هذه المدينة الصغيرة التي تبعد أميالا فقط عن مدينة ساحلية كبيرة.. منحتنا الدولة تعويضا، شقة ومبلغا ماليا بعد أن اغتالت يد الإرهاب أبي ونسف حزام ناسف فرحتنا وسعادتنا.

مسحت أمي عن جبيني خطوط الحزن. ملأت الفراغ الذي تركه أبي واستطاعت بفضل بعض الوسطاء وشهادة في التمريض أن تحصل على عمل ليلي في المستشفى الجامعي في المدينة الكبيرة.

تستقل تاكسي كل مساء وتغادر للعمل ولا تعود إلا مع الفجر منهكة.

انغلقت الدائرة علينا نحن الثلاثة... أمي وزينب وأنا. اعتزلنا الناس لأنهم "يغارون منكما ويحسدوننا لأننا

الأفضل والأجمل والأرقى".. صرت أعامل الناس باحتقار. كرهتهم. مسّني الكِبْر وبتُّ مغرورة، متعجرفة، أنظر إلى البشر من فوق، أراهم كالذباب. الناس أغبياء وأشرار وتافهون، لا يستحقّون صداقتي.. وأنا لست بحاجة إليهم مادامت معي أمي وأختي.

ظل الحال كذلك إلى أن تعرّفت على سارة، في الأشهر الأخيرة من نهاية دراستي الجامعية. كنت مجبرة على الحديث إليها والتقرّب منها. وكان لابد أن نلتقي بانتظام للعمل معا على مذكّرة التخرّج.

وفي يوم دعوتها إلى زيارتي في البيت لكي نتّفق على الخطوط العريضة للبحث.

ولكني ما كدت أتلفّظ باسم الحي حتى انتفضت سارة كأنّ عقربا لدغتها:

- ماذا قلتِ؟ تقطنين ذلك الحيّ؟ حيث تسكن تلك المرأة؟

- من تقصدين؟ أية امرأة؟

- غير معقول... ألا تعلمين؟! منذ متى تسكنين هناك؟

- منذ... منذ سنتين تقريبا وبضعة أشهر. لماذا؟

- غريبة! ولم تسمعي عنها؟

- أسمع ماذا؟ أفصحي سارة أرجوك!

- في ذلك الحي تقطن..... حدّثتني عنها أمي.. أرملة شابة وأم لبنتين. توهم الجميع بأنّها ممرضة وتشتغل في المستشفى الجامعي بينما في الحقيقة هي... هي.

تتلفّت سارة يمينا ثم يسارا كمن سيلقي بقنبلة.

- حسنا اقتربي لأهمسَ في أذنك.

دمدم همسها في أذني، وفي رأسي سقطت الظلمة والصقيع.

obeikan.com

بماذا يحلم الوحل؟

عراءٌ... عراءٌ... عراءْ...

بعد المدرسة يعود الرفاق إلى البيوت.

البيوت في الشوارع. يعود مروان إلى الشارع.

الشارعُ بيت مروان.

لا جدران تؤويه مذ سقط من حضن الغيب في حِجر العراء.

كلما يحاول مروان الوصول إلى السقف يمسك بالعراء.

في "ساحة الشهداء" تطوف أرواحهم... الذين "عند ربهم يرزقون".

يتساءلون... لا يفهمون... لمَ مروان هنا مع أمه وأبيه؟

من أجل ماذا كانت الدماء والتضحيات؟

مروان يحب الرسم وكرة القدم. يكره التاريخ والجغرافيا.

يرسم دائما.. على محفظته المهترئة.. على سرواله.. على حيطان المدرسة.

وفوق كراسة أحلامه.

دائما نفس الرسم... منزلٌ صغير. بابٌ يتوسط نافذتين.

خلف المنزل شجرة وارفة. أمام المنزل طفلٌ يلعب بالكرة.

فوق المنزل شمسٌ تضحك للطفل.

مطرٌ... مطرٌ... مطرْ.

"ليس بيدي شيء" يقول المسئول. "من مات ادفنوه".

القبيلة اختارت المسئول. المسئول اختار لها الفجيعة... بألف لون ولون.

المسئولون موهوبون في جرّ المآسي.

الناسُ كرماء. الفقراءُ أكثر كرما. يبنون بيتا لمروان.

بيتٌ فوضويٌ عند سفح جبل. بجانبه بيوت أُخَر.

أحلام البؤساء تزاور. تبتسم في وجه بعضها البعض. تتآزر.

أحلام البؤساء تحلم بالشمس... بسماء لعصافيرها.

الشمس تعتذر عن الظهور. الشمس لا تزور الفقراء. لا تحب سفوح الجبال.

يسقط المطر. أول الغيث قطرة. قطرتان.

قطرات... سيولٌ... سيولْ.

تنجرف التربة. يميد الجبل. تنجرف الأحلام.

لا عاصم لك اليوم يا مروان. الجبل وراءك ومن أمامك السيل.

يأخذ الموت شكل الوطن.

ويسألوني عن الوطن.

أقول: أمٌّ تأكل صغارها.

الشهداء في "ساحة البؤساء" ينتحبون. يتساءلون.

أهباءً سالت الدماء؟

يتوقّف المطر.

آخر الغيث وَأْد.

وحلٌ... وحلٌ... وحلْ.

السماء عابسة. الوقت ثقيل. القلوب منتكسة. بعض العيون تذرف الألم...

دمعةً دمعة.

أنفاس الموت تحوم في الجو.

رجال في الوحل للأذقان ينتشلون من الطين جثثا ليعيدوها إلى... الطين.

مروان في وضعية الجنين. مغمسٌ بالوحل. الوحل يغطي سنواته العشر.

يغطي عينيه وفمه وأنفه و... أحلامه.

على رأسه قبعة صوفية... في قدميه جوارب.

كيف يتواطأ الوطن مع الموت ليحقّق حلم الوحل؟

هل كان الوحل يحلم بمروان؟

obeikan.com

الأيادي الناعمة!

أحملق في الباب المغلق قبالتي.

أحاول ترتيب أفكاري. أمرّر يدي على جبيني. أنظر في ساعتي.

استجمع الصور في ذهني، وفي سرّي أستذكر الكلام الذي سوف أقوله.

أشعر ببعض التوتّر والارتباك ولكني لن أتراجع. لن أعدم المحاولة.

هناك دائما خطوة أولى، وعلى أحدٍ أن يخطوها.. ربما وجب أن يكون أنا.

هذا الصباح حسمت أمر الفكرة التي راودتني منذ شهور. سائق سيارة الأجرة كان سينعطف شمالا، كما كل يوم، عندما طلبت منه أن يأخذ الشارع المعاكس لمقر الشركة.

أتساءل فقط... هل سيصدّقونني؟ ماذا لو قزّموا القضية ونصحوني بنسيان الأمر؟ حجّتي واهية مع غياب الأدلّة، وحتى لو هناك دليل فسيكون ضعفي مقابل قوّته،

وضعي الاجتماعي مقابل نفوذه وأمواله، تكويني الأنثوي مقابل عالم الذكورة المتجبرة الطاغية المنحازة.

حين يُفتح هذا الباب، بعد لحظات، ويدعوني مفتش الشرطة للدخول سوف تبدأ المعركة.

كان أبي يقول "مهما نكره الحرب قد تضعنا الحياة وجها لوجه مع معركة ما، وسوف نخسر إذا خضنا غمارها خائفين أو متردّدين" مسكين يا أبي، ربحتَ معركتك بعد صراع مرير مع الظلم، لكنك لم تهنأ بالنصر. سكتة قلبية أودت بك أسابيع فقط بعد غلق قضية الاختلاس التي لفقوها لك. ومع ذلك أتصوّر أنّك متّ سعيدا لأنك لم تستسلم...

يقال أنّ الموتى يشعرون بمآسي الأحياء. كم أحتاج لأن أومن بذلك لكي أتصوّرك الآن معي... تساندني.

لست أشعر بالخوف. في أقصى الحالات سوف أخسر وظيفتي. لا يهم.. لكنّي أتمنى لو كنّ معي الآن... سعاد أو نوال أو منيرة أو سمية.

"اليد الواحدة لا تصفّق"... يصهل الإحباط داخل رأسي، بينما صوتٌ واثق، يهزّني... " ولكنها تصفع!".

كأنّه صوت أبي؟!

سمية لم تأت. خذلتني. لا فائدة ترجى منها. حاولت جعلها تغيّر رأيها. أرسلت لها عدّة رسائل قصيرة منذ ليلة البارحة .لم ترد. أعرف موقفها. قالت لي بصريح العبارة "لا تنتظري مني أن أكون معك" وتلعثمت "هو.. هو لم يفعل شيئا. مرة واحدة، أو مرّتين، لا أذكر، لمسني في... في صدري... فقط".

وأشاحت بعينيها عن نظراتي.

كنت أعرف أنها تكذب.

"فقط؟" صرختُ فيها لحظتها " ماذا تنتظرين أن يفعل؟". لم تقل شيئا. تركتني أصارع غضبي واستدارت نحو مكتبها.. أعرف أنّ الخوف يمنعها، لا تستطيع أن تغامر بوظيفتها وسمعتها.. من سيعيل والدتها المقعدة وإخوتها الصغار؟ الخوف يمنعهنّ جميعا. الخوف من الناس تحديدا. منيرة قالت لي ماذا سيقول الناس؟ نوال أيضا. الناس... الناس.. هل سيمد الناس لك أيديهم وأنت تغرق في الوحل؟

لا أدري لم لا تكون الأمور كما تبدو، أو كما نتمناها ونحلم بها. من كان يصدّق أنّ ذاك الخمسيني الوسيم الأنيق هو في الحقيقة رجل متصابي، يعيش أسير أهوائه وغرائزه الحيوانية.. أراد أن يمارس اللعبة نفسها معي غير أنّ الحظ لم يحالفه. غرّته ابتسامتي الخجولة ولم يدر بأنّ

وراء ملامحي الجميلة الناعمة ومظهري الهادئ الوديع فكرا متوثّبا وعقلا حرونا لم يعوّدني أن أخونه.

أتذكّر البداية بالتفصيل. دخلت مكتبه في صبيحة يوم ربيعيّ مشرق، وكان قد مرّ أسبوع على التحاقي بمنصبي الجديد. كنت أنوي ترتيب بعض الملفات في الخزانة، عندما باغتني قائلا:

- دعي الملفّات مكانها، أنا سأرتّبها عنك.

ثم أضاف وهو يشير إلى يدي بحركة من رأسه:

- هذه اليد الناعمة لم تخلق سوى لتقطيع الكعكة!.

رفعت يدي عن الملفات. نظرت إليه. تمتمت بكلمات شكر، ثم حملت دهشتي وخرجت من مكتبه وأنا أشعر بشيء من الزهو. لا توجد أنثى لا تسعدها عبارات الإطراء والثناء.

في الرواق وقفت مذهولة، أقلّب يدي، أنظر فيها كأنّي أكتشفها لأوّل مرّة.

هذه اليد؟ يدي؟ لم تخلق سوى لتقطيع الكعكة؟ وأنا التي عانيت، ومازلت، من حمل المكنسة وتقطيع الثوم والبصل؟!

يا له من رجل! يا لسحره! تقطيع الكعكة؟! كنت أحسب أنني فزت بمنصب أحسد عليه في شركة كبيرة!

قبل ذلك اليوم، كان قد وصلني كثيرٌ من الهمس حول أناقة المدير وسحر حديثه ووسامته. ولأنّه دائما، في كل مكان عمل، يزوّدك موظف ثرثار عادة يكون امرأة! بالأخبار والأسرار، فقد تطوّعت، عن طيب خاطر، موظفة مسنّة، دميمة الوجه، لتخبرني بأنّ المدير لم يفصل السكرتيرة التي كانت قبلي بسبب ارتكابها خطأً مهنيا لا يغتفر، كما يشاع، وإنّما لأنها غبية.

ثم قالت لي وهي تغمزني بطرف عينها وتبتسم بخبث "لا تكوني غبية مثلها!".

لم أستوعب قولها، ولكني لم أهتم. غير أنّ الأيام التي تلت كشفت لي عن مفهوم الذكاء عند دميمة الوجه!

أن أكون ذكية معناه أن أتغاضى عن ملامسة يده ليدي أو كتفي أو ذراعي، أو خدّه يكاد يلاصق خدّي، أو أنفاسه تفحّ في وجهي وهو ينحني بحجة توقيع أوراق فوق مكتبي. الذكاء أن أوافق على البقاء برفقته خارج أوقات الدوام، أن أقبل هداياه ودعواته للخروج، بل وأقنع نفسي بأنّ ذلك من صميم العمل، وربما يدخل في منحة المردود المهني.

وبدأت أختنق وأنا أحس بشرنقته تلتف حول عتقي، وحصاره يدكّ حصون عقلي.

وعبثا كنت أبدي نفوري من تصرّفاته، واشمئزازي من عباراته المبطّنة وتعليقاته الشهوانية ونظراته الجائعة التي تلاحق حركاتي وسكناتي... ظل يحاول إغوائي، متماديا في رعونته ونزقه، لا يفهم ولا يرعوي.

وكان أن فقدت أعصابي تماما عندما تطوّر الأمر ليصبح التلميح تصريحا، بل تهديدا واضح اللهجة.

أحملق في الباب. أفكّر في ما أنا مقدمة عليه. أشعر بالقلق. وقعُ خطوات أنثوية يشوّش تفكيري وإيقاع كعب عالي يزيد من توتّري. يفقدني التركيز تماما.

و... تشهق الدهشة في صدري.

أقف. أمدّ يدي.. أمسك بيدها. أضغط عليها بشدّة..

ناعمة ودافئة. تسرّب دفئها إلى قلبي.

وكأنّما أحسّت تململ القلق في نظرتي، فانحنت سميّة برأسها على كتفي..

و... في أذني بصوت خفيض.. "لا تقلقي. الدليل معي".

اغتصاب...

هذا الصباح لفظته الحافلة في مدينة أخرى، أنأى هذه المرّة.

هامَ على وجهه مستنفرًا خطاه كهاربٍ من وباء يخشى ألا شفاء منه سوى التمرّغ فيه.

جاب الشوارع والأزقة مشتّتَ الفكر، مبعثرَ الشعور، يغالب نفسا أثقلها الهم ويتحاشى النظرَ في وجوه المارّة مخافة أن يكتشفوا عُرْيَ ذاته، أو يفضحوا ما وراء وسامته وأناقته وقسماته البريئة. يغضّ الطّرف كلما صادفته أنثى.. أعيذني منك.. ومن نعيم جنّتك المستعرة.. كل النساء لبِسْنَ ملامحكِ!. تبًا لك.. لمَ لا تيسّرين الأمر عليّ؟ لمَ تصرّين على ملاحقتي؟ إني راحل صوب أرضٍ محايدة أدفن في تربتها سوءتي، وأستتر تحت سماءٍ أخرى لم تشهد وضاعة فعلتي وبشاعة جرمي.

أراد التملّص من شِرك غواية نصبته له عيناها ذات ليلة من ليالي الصيف المثيرة، المغرية بالطيش والجنون.

تحاصره صورتها أنّي يمّمَ أفكاره، تلاحقه كظلّه، تركض خلفه شياطين فتنتها، تغريه بأن يعود أدراجه، يرتمي في وهج أحضانها وينهل من كنوز الجسد المرمري..

من خلف كتفه، تطلّ أفعى رقطاء يقطر السمّ من أنيابها ويضطرم اللّهب في عينيها، تفحّ في أذنه."فعلتَ ذلك أكثر من مرّة، لمَ تتراجع الآن؟".

ينتفض. يلعنها في سره ويلعن الساعة التي شهِدَتْ، على يديها، بدء مأساته وثورة جحيمه، يوم كان فرخا خفيف الزغب مَرْخِيّ الجناحين يحلم بالتحليق في عوالم الفحولة.. دون أن يعي منها سوى شذرات تصله من رفاق الحيّ والمدرسة أو أخيلة تغذيها مراهقة كانت تطرق أبوابه على استحياء.

مدلّل خالته الصغرى كان، منذ حداثة سنّه، المفضّل عندها، وحده من يستأثر باهتمامها وحبّها وحنانها. يرافقها إلى الحلاقة والسوق وتصطحبه في الزيارات والمناسبات وعكس كل خالاته، كانت مرحة حدّ التصابي، مستهترة، تعشق البهرجة والمظاهر.. حتى الزواج لم يغيّر شيئا من طبعها.

"حبيب خالتك أنت.. اقترب.. تعالى في حضني. من أغضبك؟".

هكذا، يحتمي بصدرها دائما كلما تضايق أو ضايقه أحد. وحتى بعد أن كبر "حبيب خالته" وأصبح شابا وسيما، جذّابا، قويّ البنية، ملفتا للنظر... شديد العناية بهندامه ومظهره، يبدو بطوله الفارع وصدره العريض وعضلاته المفتولة أكبر من سنّه بكثير.. فقد ظلّ قريبا منها، ملازما له.

كثيرا ما كان يغلبه الارتباك وهي تتعمّد أن تلتصق به أو تلامس جسده بجرأة غريبة، أو تضع ذراعها في ذراعه وهما يسيران في الشارع فيحسبهما الرائي حبيبين أو زوجين حديثي الزواج.. بعدها تحوّل الارتباك إلى إحساس بالزّهو وهو برفقة امرأة جميلة أنيقة تلاحقها العيون، ثم أصبح يشعر برعشة لم يألفها كلما تابعته بنظرتها أو اقتربت منه.

إلى أن كان حفل زفاف أخته.

تلألأت الأضواء وعبق المكان برائحة العطور ورنين الضحكات وتفتق الأهواء حسناوات غاية في الأناقة والتبرّج يرقصن على وقع موسيقى صاخبة، وتألّقت خالته في ثوب حريري بديع كشف مفاتن جسدها فبدت أجمل من قبل، غواية تسير على قدمين، تدور بين المدعوين توزّع الحلوى والابتسامات وهو إلى جانبها، في كامل أناقته، يساعدها في توزيع المشروبات وقد لعبت برأسه بضع كؤوس من الخمرة احتساها في غفلة من الجميع.

وفي آخر الليل لا يذكر كيف انتهى به الحال على انفراد معها، في غرفة، بالطابق الأول لتغتنم الفرصة ورتمي في أحضانه.

أسقط في يده.. ماذا يفعل؟ كيف يتصرّف؟ أين المفرّ وقد أُضيئت كل الحواس المطفأة في شعاب جسده الفتيّ

القويّ..؟ ماذا يفعل أمام امرأة مجنونة، صارخة الأنوثة، تجيد كل فنون الإشعال وطقوس الإغراء؟

تكاد تردعه رعشة الخوف ويثنيه الخجل لكن أوار الرغبة يستعر في دمه وأمواج الشهوة تجرفه نحو الأعمق فيغرق في شذى أنفاسها.. وفي لهب السرير.

مذعورا... أفاق من سكرة النشوة. لملَمَ براءته المُراقة فوق شراشف السرير وعفّته المسفوحة بسكين طيشها، وهرول خارجا متعثّرا في عرقه وخجله وذهوله.

ولكنه استعذب التجربة، انتشى باللذة فأصم أذنيه عن صوت العقل، وانقاد وراء نزوته واستهتار امرأة صار اليوم يمقتها بقدر ما كان يعشقها. انغمس الاثنان في أتون الشهوة أياما بل شهورا. ولأن زوج خالته، بحكم اشتغاله بالتجارة، كان كثير الغياب والأسفار فقد كانت الأجواء مهيأة للقائهما وخلوتهما دون رقيب، بل إن الزوج كان يترجّاه أن يهتم ببيته في غيابه ويعتني بخالته.

إلى أن حدثت الهزّة.. مفاجئة، عنيفة.

توفى زوج خالته في حادث سيارة.. شعر بالأسف من أجله، ولكن الغريب ما حصل له لحظة كانوا يدلون بالجسد الهامد في الحفرة الضيّقة المظلمة. لا يدري ما الذي أصابه. أجهش بالبكاء فجأة ولم يستطع التوقّف..

أحس بفزع شديد وانتابه التوتّر والضيق وراح يحدّث نفسه.. "أ أكون قتلته؟".

بدأت معاول الندم تحفر في جدران روحه. داخَلَهُ شعور بالخزي وغزت فكره مشاعر سلبية قاتلة تمنّى لو كان يستطيع توجيهها نحو أي عامل خارجيّ.. كم سيكون مرتاحا لو يقنع نفسه بأنه الضحية فيتحرّر من وخز سهام سامة بدأت تنغرز في صدره وظهره، ورأسه.

ولكن عذابه كان يزداد يوما بعد يوم. تقاذفته الهواجس ومزقت قلبه نوازع اللذة من جهة ومرارة الإثم والإحساس بالذنب من جهة أخرى. غير أنّه وجد نفسه مرّة أخرى منساقا وراء هواه، مَقودا بعصا غريزته العمياء وإلحاح شهوته، فعاود الرجوع إلى وكر المتعة ولكنّه ما كاد يقف بالباب حتى أحاطته المخاوف والوساوس من كل جانب، أحس بضيق شديد في صدره فنكس رأسه وهرول راجعا وصوت يتردّد في أذنيه دون انقطاع.

"غدرتَ بالرجل حيّا، كيف تجرأ على الغدر به ميّتا؟".

تبًا لي! منتهى الفظاعة والجبن والخسّة أن أغدر بميّت!.

بعد أيام، والفجر يمسّد بالضياء وجه المدينة، حمل حقيبته ورحل.

للورد أيضا مآتم ...

هشّموا ضحكتها، شرخوا مرآة نقائها...

خضّبوا بالعفن عصفورة روحها ووقفوا يتفرّجون.

جسدها الآن يتمزّق. يتلوّى. ينزّ دما وألما. صراخها المكتوم يكوى صدرها وحلقها. أنفاسها تتلاحق، حارقة، تكاد تلهب المكان... يتفصّد جبينها الوضّاء عرقا.. يحتدّ الوجع..

وتدوّي صرخة الوليد كصفعة في وجه العدم.

تهدأ قليلا... تصلها أصواتهم بشيء من الوضوح بعد أن كانت مجرّد همهمات ذابت في عمق التوجّع.

العمة وابنتاها والجارة، ووجوه أخرى، بلا ملامح، أتى بها الفضول.

تغرق وردة في بكاء هستيري، ثم تسقط في الصمت.

إنّها الآن شلالُ حيرة، جرحٌ مسجى. عيناها غائرتان شاردتان، تنظران يمنة ويسرة، تبحثان عن الأمان، عن وجوه أحبّتها وسُلخت منها. تحدّق في "الدمية" بجانبها... أتراها تدري من تكون؟ لعلّها تدري ولا تفهم.

وليدة ضئيلة الحجم، ملفوفة في قماطة بيضاء، مغمضة العينين، منتفخة الوجه، لكن جميلة الملامح.

توقّفت الآن عن البكاء وركنت إلى النوم.

ممرضة ضخمة الجسم، متثاقلة الخطوات، مقطّبة الجبين، تتبادل مع العمّة بضع كلمات، تدوّن شيئا على دفتر كبير بين يديها ثم تجعل وردة تغمّس سبابتها اليسرى في علبة مبلّلة بلون أزرق وتوشم أسفل ورقة.

تأخذ الوليدة وتمضي، دون أن تقول شيئا.

سوف تكون في مكان ما. ويكون لها اسم، أيّ اسم. من الذي سيهتم؟

ليست وردة سوى فتاة بلهاء، لن تختار لها اسما، كما لم تختر مجيئها، ذات ربيع، حين أصابع الفجر، على إيقاع صياح الديكة، تلملم ضفائر الليل، والحقول والحظائر تفتح أذرعها للنور، وخمسة أطفال، نائمين، كصغار الهررة، ملتصقين تحت أغطية رثّة بالكاد تقيهم البرد المتسرّب من سقف وزوايا المنزل، والقابلة العجوز التي شهدت ولادة كل أبناء الدّوار، تردّد، بعد أن انتشلت الوليدة بيديها الكبيرتين الخشنتين من رحم الأم... "ما شاء الله! ليست بنتا، إنّها وردة".

مكتملة النمو وآية في الجمال، مشرقة كأنّما وجه الفجر قد تشكّل من نور وجها، رقيقة كزهرة نرجس لكن بكماء، بلهاء، وطيّبة حدّ الهبل. في رأسها فجوات وشقوق لم تُسدّ.

وحده البهاء اكتمل فيها بصورة مذهلة، وكذلك الطيبة.

تكبر وردة في عالم ترسمه غرائبية خيالها، مملكة من الطهر وفضاء من النقاء تحلّق فيه بعيدا عن هموم البشر ومكائد ومكائدهم... وتتفجّر فيها الأنوثة لتصبح وهي فقط في السادسة عشرة صبية فاتنة، جسدا بديع التكوين، ضاجا بالحسن يستوقف كل من ينظر إليه... قوامها أهيف متناسق ممشوق، وعيناها ساحرتان بأهدابهما السوداء الطويلة التي حين تسبلها، يرتسم ظلها فوق وجنتها المورّدتين على الدوام.

صار لوردة جسد امرأة ولكن عقلها ظلّ عقل طفلة... تصرّفاتها طفولية، وإحساسها طفولي، تفكيرها، مزاجها... تعشق اللعب مع الصبية، تقفز ضاحكة وجديلتا شعرها الأسود الحريري ترقصان فوق صدرها الناهد، تشاكس والديها وإخوتها، تضمّهم إلى صدرها وتقبلهم بكل حنان.

و... أطلّ وجه الحزن... في أحد الصباحات الضبابية.

سيارة فارهة توقّفت أمام الكوخ البائس.

يمد والد وردة يده ليسلّم على زوج أخته الثري، مجبرا جسده الذي أحنته الفاقة على الانحناء أكثر.

يتبادل مع زوجته نظرات ذات مغزى. ثم يتمتم:

- كيف لنا أن نرفض طلب الكريم صاحب الأفضال واليد البيضاء علينا جميعا.

العمة ترسل نحو المكان نظرة تقطر قرفا.

تدفع بوردة داخل السيارة:

- لا تقلقوا عليها. ستكون في مكان أفضل... بكثير.

دموع وردة تتجمّع في العينين النجلاوين و... ملامحها الحائرة تشي بما عجز اللسان عن البوح به.

لم يهتم لمشاعرها أحد. ليست سوى بلهاء... كلّ فكّر في نفسه، في مصلحته الشخصية، موازنا بين الربح والخسارة. ستحظى العمة بمن يؤنس وحدتها، ويساعدنها في أعمال البيت الكبير، وأبو وردة سيرتاح من همّ إعالتها، سدّ جوع خمسة أفواه أهون، بالتأكيد.

كبيرة المدينة وبيت العمة كبير، وكل ما حول وردة غريب، مختلف، وغير مألوف، ولكن مع مرور الأيام تعتاد المكان... تنحني للأوامر بكل حب وتخدم الجميع بلا تذمّر.

سيئا كان حظك يا ربيع تلك العشية لكي تكون شاهدا على اختناق الـ وردة وتفسّخ أريجها!

- لنتوقف قليلا، نأخذ قسطا من الراحة، ونشرب من النبع... هناك.

تعوّدت أن ترافق ربيب عمّتها، شاب عازب في الأربعين، إلى المزرعة في بعض الأمسيات لكي يتفقّد العمّال.

كان قرص الشمس قد بدأ ينحدر ببطء نحو الأفق، صابغا وجه السماء وأعالي الشجر بلون قرمزي بديع، وأسراب العصافير تحلّق بعيدا راجعة إلى أوكارها لتنعم بالدفء...

في اللوحة ما ذكّر وردة ببيتها في الريف...

أغرقها دفق الحنين فراحت تذرع الحقل الممتد بفرح كبير كغزالة تحرّرت من شرك صياد..

كانت عيناه تتابعانها بشغف يتزايد مع كل حركة منها.

عيناه الآن تنزعان عنها ثيابها، قطعة قطعة، تأكلان جسدها الشهيّ. أصابع خياله تلعب في شعرها وقد بعثرته فوق جبينها وكتفيها نسمات المساء.

وردة تتخلّص من فردتي الحذاء ترمي بهما بعيدا، تتقدّم نحو النبع، ترفع ثوبها فيتكشّف عن ساقين طويلتين

ملفوفتين كعمودي شمع، تحني قوامها الرشيق ثم تنتصب وتنثر الماء بحفنتها عاليا فتهمي قطراته فوق وجهها وشعرها، وتضحك وردة، تضحك بسعادة كبيرة، تغرق في الضحك.

تثيره ضحكاتها أكثر، تُسيل لعاب غريزته، تغلي في رأسه شهوة عمياء، مجنونة، تملأ عينيه وأضلاعه وأوردته، تكمّم فيه العقل. يتخدّر وعيه.

لم يعد يسمع سوى صراخ الوحش الراكض في دمائه.

obeikan.com

عَيْشَه ...

كنا نستيقظ، أحيانا، في أنصاف الليالي، على صوت نحيب يقطع نياط القلب، فيطلب أبي من أخي الأكبر أن يخرج ليتفقّدها، ربما تكون مريضة أو أنّ "أولاد الحرام" قد تعرّضوا لها بسوء.

بعد سنوات، حين صادفت ثاني مجنونات القرية، تهيم في الشارع، متثاقلة تحت وطأة بطنها المكوّرة... فهمت ما كان أبي يعنيه بـ "سوء".

وأدركت بأنّ الجنون ليس قوّة كما بدا لي ذات طفولة.

في سن صغيرة جدا، اعتقدت أنّ عيشة من العائلة، عمّتي أو خالتي مثلا أو أختي، لأني فتحت عينيّ على الدنيا لأجدها هناك، ولأنّ أبي كان يهتم بها اهتماما غريبا، زائدا عن الحد.

كان اسمها حاضرا، في بيتنا، بشكل شبه دائم.. في كل مناسبة أسمع أبي يوصي أمي... "لا تنسي عيشة"، "احتفظي بنصيب عيشة"، أو يأمرنا بشيء من الحزم "تفقّدوا عيشة"، "لا تستفزّوا عيشة".

في الجهة الخلفية لمنزلنا الكبير... تقضي أيامها ولياليها... عشّة ضيّقة، مصنوعة من الكارتون وقطع من الأقمشة البالية، لا تكاد تقي بردا ولا حرّا. والغريب أنّها لم تكن تمرض أبدا! حتى في عزّ الشتاء والبرد وتساقط الثلج.

أيّة قدرة على التحمّل كان يمنحها لها عقلها المخرّب؟ أيكون الجنون مناعة؟ حصانة بشكل أو بآخر؟

أحيانا تطلب مني أن أقترب منها. تبتسم لي وعيناها طافحتان بحنان عجيب، قبل أن تنهرني بإشارة من يدها، فأقفز خطوات إلى الخلف، مبتعدة، متوجّسة منها، لكن ضاحكة، غير آبهة.

كنت أجد متعة خفيّة في تأمّلها، خاصة حين تجتاحها نوبة الغضب فتدور حول نفسها، حانقة، ثائرة، وقد احمرّت عيناها وانتفخت أوداجها وتجمّع البصاق فوق شفتها.

تلوّح بقبضتها في الهواء كأنّما تطارد أشباحا. تتلفّظ بكلام بذيء. تتوعّد. وقد تلتقط الحجارة، وترمي بها المارة أو تبصق في وجوههم... والويل لمن يسخر منها أو يحدّق فيها.

أقف غير بعيد ومعي أطفال الحيّ، ضاحكين من تصرّفاتها، مستغربين هيجانها... متوقّعين أن يصل بها الأمر إلى نزع ثوبها وكشف جسدها، كما كانت تفعل حين تصل النوبة أقصاها. لم نكن نأمن لها جانبا وهي على تلك

الحال، رغم أنها كانت تحبّنا... لا نجرؤ على الاقتراب منها إلا حين تهدأ تماما.

نوبات الغضب تلك كانت نادرة ولا أحد يدري ما يسبّبها ولا كيف تبدأ، أما في معظم الأحيان فقد كنت أراها تجلس في هدوء تام، مبتسمة، سعيدة، ترفع عقيرتها بالغناء، أو تخرج من كيس بالٍ مشطا وتبدأ محاولة يائسة في تمشيط شعرها الأشعث.

كنت استغرب. لا أفهم كيف يمكنها المرور، وفي أوقات متقاربة، بكل تلك الحالات المتباينة من ضحك أو بكاء أو سكون أو هيجان....

أعترف أنني، في فترة ما من حياتي، غبّطت عيشة على جنونها، وتمنّيت لو أملك مثلها تلك الشجاعة والقدرة على الدّفاع عن النفس.. ماذا لو كانت أعارتني جنونها ليوم واحد فقط؟ كنت شتمت الإسكافي العجوز القذر الذي، حين قصدته لتصليح حذائي، جعلني أجلس في حجره. يومها لم أفهم لمَ فعل ذلك، شعرت بالحرج وعدم الارتياحو كرهته جدا.... وكنت شتمت بائع الحلوى الذي قرصني في خدّي بشدّة، ورميت بالحجارة كل الذين لمعت أعينهم بنظرة الذئب الجائع .

لم أكن أرى في جنون عيشة ما يعيب، بالعكس كنت أشعر أنّها متميّزة وقويّة... وقد مرّ زمن قبل أن أتخلّص من فكرة ملحة: أن تكون مجنونا معناه أن تكون حرّا وقويّا ومهيبا وشجاعا، وأن تفعل ما تريد وتقول ما تريد دون رقيب أو حسيب... لكن عيشة تبيت في العراء وأنا لم أكن لأطيق ذلك. لا أنام إذا لم تحوطني بذراعها عن يميني أختي زينب، وعن شمالي أختي سلوى، وإذا لم يكن آخر ما أراه هو أمي تروح وتجيء في البيت قبل أن تسكب في عيني رحيق الأمان فأخلد للنوم..

أتذكّر جيدا ذلك اليوم من أيام رمضان.

أجري نحو أمي، أجذبها من فستانها وأنا أصيح بصوت مدهوش "أمي... أمي... رأيت الآن عيشة" تأكل رمضان! "نعم.. تقول أمي بكل برودة دون أن تلتفت نحوي أو تتوقّف عن الانشغال بما بين يديها".

- "هل ستذهب عيشة للنار لأنّها لا تصوم؟".

- "لا يا ابنتي... لن يحاسبها الله لأنّها بلا عقل"

- من أخذ عقلها يا أمي؟

- "لم يأخذه أحد... هكذا خلقها الله".

- "ولماذا خلقها الله هكذا؟".

ينفذ صبر أمي... تعرف أنّي لن أتوقّف إن لم توقفني بطريقة أو بأخرى.

"كفّي عن طرح الأسئلة وتعالي ساعديني".

أتقدّم لمساعدتها... ولا أفهم حقا.

وقبل العيد بأيام أرافق أمي إلى السوق لنقتني لوازم المناسبة السعيدة...

أرى أبي يدسّ في يدها أوراقا نقدية ويقول: "اشتري ثوبا جديدا لعيشة... أيضا".

كلما أتذكّر ذلك أتساءل عن السر وراء اهتمام أبي بعيشة، وأمي أيضا.

لم يخبرني أحدٌ أبدا إلى أن عثرت على تلك الورقة الرثّة المطوية في حافظة أوراق والدي بعد وفاته.

obeikan.com

ضَوْءُ الكابُوس

ينحسر مدُّ الموت تاركا المكان لميتات أُخَر، أشدَّ فظاعة.

ولأنّ الحربَ سخية بالمآسي، فقد أبت، حتى وهي راحلة، مشيحة بوجهها الدميم، أبت إلاّ أن تقذف بهدية أخرى من هداياها في حِجر القرية المكلومة المهلهلة، التي بالكاد تحاول النهوضَ من ركام الفناء.

صيف 1968.

وباء التهاب السّحايا ينتشر.

يكتسح نصف سكان القرية.

يلقي على بيتنا الآمن بظلال الفزع والحزن.

نصاب بالمرض، ثلاثتُنا، في آن واحد.. أختي الكبرى حورية والصغرى سوسن وأنا.

وكأنّ الوباء لم يجد في هويّتي الصغيرة ذات الستة أعوام أجمل ولا أدفأ من عيوني ليختارها سكنا ومقاما.

في غضون أيام من تفشّي الداء كانت عيناي مغمضتين تماما. أجفاني ملتصقةً بعضها ببعض كأنّما خيطت بسلك من حديد. أجاهد لكي أفتحها لكن دون جدوى.

لم أكن أرى شيئا، غير أنّ إحساسي بما حولي كان قويا.

كنتُ أتلمّس الأماكن بيدي الصغيرتين ولا أنتبه كثيرا لتحذيرات أمي.

الطبيب الفرنسي الذي ظل يعمل بالمستوصف ولم يرحل مع قوافل الراحلين عشية الاستقلال وصف دواءً غير أنّه لم ينفع.. لم يقنع والدي الذي عكف كل ليلة على تكحيل عينيّ بخلطة من عسل النحل و لا أدري ماذا أيضا.

بقيت أسبح في ظلمة دامسة إلى أن كانت ليلة صيفية.

رأيت حلما.

لا. لم يكن حلما. كان كابوسا. لا أذكر منه شيئا على الإطلاق. مرعبا كان دون شك.

كل ما أذكره أنني صرخت.. صرخة حادة. كان الوقت رأس الليل أو ذيله. أيقظت صرختي الجميع. هرعوا فزعين. تجمّعوا حولي.

واستطعت أن أرى، أراهم.

لا أصدّق، إلى اليوم، أنّني أدين بنور عينيّ لكابوس!

في النهاية.. لعلّ الكوابيس المرعبة هي التي تنير لنا الدروب، وليست الأحلام.

الأحلام الشفافة الوردية تشوّش الرؤية، تفقدنا التوازن، تجعلنا نتعثّر كثيرا لأن نظرنا يكون معلّقا بالسماء.

غمر النور بصري.. غمرتني السعادة.

مؤكّد أنّه لا يستشعر لذّة الانسكاب في فيض النور إلا من عانى من حصار العتمة.

كنت كمن يكتشف العالم من جديد.. نظراتي ظمأى، تشرب الوجوه والأمكنة، تستنشق الحيطان والزوايا والأسقف والنوافذ و كل الأشياء البسيطة التي كانت تؤثث طفولتي.

بدا كل شيء جميلا كقلب وردة، مضيئا كوجه طفل في يوم عيد..

عادت فرحتي بمراقبة أمي حين تفرش السّجادة في ركن الغرفة للصّلاة، أو تطهو كسرة الخبز فيحيّرني كيف تقلّبها في "الطاجين"[1] ولا تحترق أصابعها... أبي بحاجبيه المعقودين على الدوام إلا حين يلاعب كلبه أو ينشغل بتلميع بندقية الصيد أو يتابع الأخبار من الراديو العتيق.. أخواتي والشغب البريء الطافح من ملامحهنّ، حَوْش

1)- الطاجين: نوع من أنواع الأواني الفخارية ويستعمل لطبخ الخبز المنزلي بكل أنواعه.

البيت المتْرَب أين كنا نرسم بالطبشور لعبة الحَجْلة ونتبارى في القفز تحت موسيقى ضحكاتنا الخضراء، شجرة المشمش في الحديقة، كاتمة أسرارنا الصغيرة ومأوى العصافير المغرّدة، القطّة الرمادية المدلّلة، دمية القش التي صنعتها لي أمي... حبل الغسيل.. مرتخيا قليلا، صبورا، صامدا صامتا كجبل، القناديل النحاسية التي كانت أمي تملأها بالزيت وتلمّعها كل مساء، وكنت أتسلّى بمشاغبة ظلالها المتراقصة على الجدار قبل أن أخلد للنوم.

كل شيء بدا لعيني أجمل من ذي قبل.. أثمن من ذي قبل.

بعد سنوات.. في المدرسة الابتدائية أحببت جدا نص القراءة "ضرير حول المائدة"[1]، لم أكن أتوّقف عن قراءته. كان يذكّرني بتلك الأمسية الحزينة حين امتلأ الحَوْش بالمعزّين، وصوت أمي ينزف حزنا تأمرني أن أتناول عشائي، تضع الملعقة في يدي، فأغمّسها في التربة.

كان عمي قريبا مني. أخذ يطعمني بنفسه.

شفيت من العمى لكن حورية اشتد بها المرض.

---

1)- ضرير حول المائدة: نص في كتاب القراءة مأخوذ من كتاب الأيام لطه حسين.

عصرتها كفّ الحمى فأذبلتها يوما بعد يوم. كانت جميلة جدا. نحتفظ إلى اليوم بصورة لها.

أجملنا كانت وأكثرنا حنانا.

بعد أيام من ولادة حورية، روت لنا أمي، حضر جنود فرنسيون إلى الدوّار، بقصد التفتيش.

"ما اسم المولود؟" يسأل الجندي الفرنسي يتكفّل "الحَرْكي"[1] الذي يصاحبه بالترجمة.

"حورية".. تجيب أمّي.

ولعلّ "الحَرْكي" أخطأ في ترجمة الاسم فأوصله بمعنى "حريّة".

"مازلتم طامعين في الحرية؟".. يسأل الفرنسي مستهزئا.

"بحول الله"، تقول أمي.

يفتح الجندي الفرنسي الخزانة حيث المئونة، تروي أمي، يفتح علبة حلوى الشامية. يتناول منها قليلا .يعيدها مكانها. يلقي نظرة متفحصة على المكان ثم يغادر، يتبعه "الحركي".

من حسن الحظ أنّ الحركي كان من أبناء الدوّار، فلم تضطر أمي و لا أختي الكبرى لفعل ما تفعله النسوة في الدور المجاورة.. ما أن يلمحن الجنود الفرنسيين قادمين حتى

---

1)- الحَرْكي: لقب يطلق على الجزائريين الذين ساعدوا النظام الفرنسي إبّان الاحتلال.

يسارعن إلى مسح وجوههن بالرماد، وتلطيخ أجسادهن بروث البقر، ليبدون بشعات، مقرفات، نتنات الرائحة، فيحجم الجنود عن الاقتراب منهن و... اغتصابهن.

كانت الحيلة تنجح، في أحيان كثيرة..

رحلت حورية.. لأنّ للمنايا أفخاخا ممغنطة تشدّ إليها من تشاء، متى تشاء، وكيف تشاء.

أما أنا فقد نجوت من الموت لكي أحيا.

أقصد... لكي أموت.

obeikan.com

فرحة... معوق فالتنفيذ!

شعور جميل، مفرح، إنّما أكبر من أن يسعه قلب طفلة، في العاشرة.

كان لابد من اقتسام رغيف الفرحة مع قلوب أخرى.

جريا على قدميّ سابقت الريح. قطعت المسافة بين بيتنا ومدرستي في وقت قياسي. بيتنا مترامي الأطراف. بناه أبي بعد الاستقلال، فوق قطعة أرض كانت مهبط الطائرات الهليكوبتر الفرنسية أيام الثورة. أبي وضع في المنزل كل ما ادّخره لسنوات طوال، ثمن زح بنا من الدوّار لكي يدخلنا المدرسة. أصرّت أمي أن نتعلم. مدرستي شيّدتها فرنسا. حجراتها واسعة. حيطانها عالية. مدفأة الفحم لم تكن تك في لنشر الدفء في أرجائها لكننا لم نكن نشعر بالبرد، وفي الصباحات الشتوية القارصة، المبلّلة بالندى، المغيّمة بضباب أنفاسنا الساخنة، حين كانت حناجرنا تصدحب "قسمًا"، كان دفء عجيب يسري في أجسادنا الهزيلة. يتغلغل في قلوبنا الغضة.

opbeikan.com

كنت أصغر من أن استوعب بطريقة واضحة ما يصل سمعي من أحاديث عن الحرب وسنين الظلم والفقر والتهميش، وويلات الاحتلال، لكني كنت واثقة من أنّ بلادي عظيمة، وأنّ شيئا خارقا قد حدث.

في حضن أمي استقرت معي فرحتي.

- أمي... أمي... لقد اختاروني أنا... دون كل بنات المدرسة، لكي أستقبله بالورد".

أمي تبتسم. يشرق وجهها. تبرق النجوم فوق جبينها المتعب. أمي تفخر بنا. أبي أيضا، طبعا، بمَي مكن أن يفخر الفقراء سوى بما تنجب أصلابهم أو أدمغتهم. لم نكن نستطيع أن نفخر بأي شيء،أخواتي وأنا، عدا التفوق المدرسي. أبي لا يملك مالا، ولا جاها، ولا ضيعا، ولا وثائق تثبت عونه للمجاهدين أثناء الثورة. حرمه ذلك من امتيازات كثيرة. في الحقيقة هو لم يسع من أجلها. ما أكثر الذين حصلوا على بطاقة مجاهد برتبة مزيّف.. وما أكثر من تمرّغوا في نعيم الثراء والوجاهة مباشرة بعد انتهاء الحرب... "بينما كنا نزغرد ونصفّق ونلوّح بالأعلام الوطنية صبيحة الاستقلال"، روتلنا أمي، "كان غيرنا يسطو على المنازل والعقارات والأملاك التي تركها المستعمرون".

أحب منزلنا الكبير. لا أحب لو أني ترعرعت في منزل مسروق. أليس سارقا من يسرق سارقا؟

كانت فرحتي لا توصف في ذلك اليوم البعيد الذي أراه الآن بعين رسام يقف أمام لوحته الزيتية وقد داهمها المطر.. فتفسّخ تم عالمها لكن لم تمتل أنّها منحوتة في خياله.

وزّعتُ الخبر على الأهل، والجيران، وكلّفتُ من يزرعه في آذان تلاميذ المدارس الأخرى.

سأقدم الورد للرئيس هواري بومدين، في أوّل زيارة له، إلى قريتنا. قرية صغيرة، مقرفصة عند سفح "جبل المايدة" الشاهق. تفتقر، كباقي القرى الهامشية، إلى الكثير من المرافق. يشتغل سكانها بالفلاحة.. بائسون هم.. ملامحهم تنضح بألوان العوز لكنهم يهدهدون التفاؤل. ينظرون بعين الحب والإكبار لهذا الرجل المهيب. يرون في مقدمه وعدا ببزوغ فجر طال انتظاره، يتوسّمون في نظرته الحادة، نظرة الصقر، خيرا كثيرا وعزّة ورفعة، بعد سنوات الذل والمهانة.

لم يكن أبي يفوّت الأخبار لكي يسمع عنه، في الراديو، ثم على التلفاز، بعد أن اكتشفنا الكهرباء أو اكتشفتنا، واشترت لنا أختي جهاز تلفزيون أبيض وأسود. أختي.. لم تواصل

دراستها في الجامعة رغم حصولها على الرتبة الثانية في مدرسة الأساتذة. كان لابد أن تشتغل لكي تساعد أبي.

كنت استعجل الأيام، لمجيء اليوم المشهود. أذكر تلك اللحظة حين نظرت في المرآة، وشغلني حجمي الصغير. أرفع نظري إلى الأعلى حتى حافة المرآة المثبّتة على الدولاب العتيق. الدولاب ببابين. لم يكن في بيتنا غيره. كلنا كنا نضع أثوابنا بداخله، أوسع مساحة فيه كانت لأختي الكبرى. تحتاج مساحة أوسع لتحتفظ ببعض الملابس إذ ربما تتزوج تقول أمي. المرآة بدأت تتآكل.. هو بهذا الطول، كنت أخمّن.. لا.. لا.. ربما أطول. أطول من الدولاب؟ ليس مشكلة. سوف ينحني بقامته الفارعة لكي أتمكن من تقبيله، نعم،كما يفعل خالي حين أزوره في بيته الطيني المتهالك. خالي لم يحصل على مسكن يليق بالآدميين إلا بعد سنوات طوال وقد بلغ من الكبر عتيّا، ولم يعد يفصله عن مسكنه في قاع الأرض سوى زفرات معدودات. خالي تمنى لو أنه فلاح. كان على الأقل استفاد من منزل في إحدى القرى الفلاحية التي أثمرها مشروع الثورة الزراعية الذي جاء به بومدين "الموسطاش". هكذا كان يحلو للبعض مناداته.. أذكر أنني في المتوسطة كتبت

على مئزري حروف اسمي الأولى بالفرنسية R. A وطرّزتها أمي بخيوط من الحرير الأزرق. كان رفقاء المدرسة ينكّتون كلما رأوني.

"Révolution Agraire! يناديني زميل لي..أرد له النكتة ضاحكة" الأرض لمن يخدمها!

نضحك بملء البراءة رفاقي وأنا. يدق الجرس. نتزاحم نحو قاعة الدرس".

تتزاحم في رؤوسنا الأحلام الفتيّة، والأمنيات العذراء.

خاطت لي أمي فستانا جميلا. لابد أن أكون في كامل أناقتي. الحدث ستنقله الكاميرات. سيبثّ في التلفزيون. سيراني كثيرون وأنا أقدّم باقة الورد للرئيس.

حُلّت مشكلة الفستان. بقي الحذاء. فستان جميل مع حذاء بائس؟ غير ممكن.. أشبه ما يكون بصورة جميلة يحفّها إطار خشبي قديم، أو قصة مشوّقة بعنوان هزيل البناء،رثّ المعنى.

أبتسم الآن وأنا أتخيّل التشبيه.

استنجدنا بخالي ليحل مشكلة الحذاء. كريمٌ خالي رغم فقره. وضع في كفي الصغيرة بضعة دراهم. هرعت لأقرب محل. اشتريت الحذاء.

في صبيحة اليوم الموعود، كان حذائي الجديد في علبته وفستاني مرميّا في ركن الغرفة..

في صدري فرحة مشنوقة.

قبل يومين على وصول الرئيس أُخبرت بأنّ باقة الورد ستقدّمها له ابنة رئيس البلدية وليس أنا.

obeikan.com

فهرس

واجهة للحلم... وأخرى للجحيم .....
ودارت الأيام .....
لو العمر حافظة أوراق .....
حمم الذاكرة .....
بطاقة صفراء .....
من أجل صديقتي .....
نجوى والذئب .....
هل كان حبا؟ .....
قصاصات حبّ مستحيل .....
اعتقني من جنّتك .....
زوبعة في قلبٍ أخضر .....
جذور قلبها .....
عشر درجات على سلّم الذّهول .....
بماذا يحلمُ الوحل؟ .....
الأيادي الناعمة .....
اغتصاب .....
للورد أيضا مآتم .....
عَيْشة .....
ضوءُ الكابوس .....
فرحة مع وقف التنفيذ .....

obeikan.com